اصدار متميز

Special Edition

روايات

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

العالم الضيق

Tight World

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا











العالم الضيق

وقصص أخرى

نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/١١٣٨٤

الترقيم الدولي:

978-977-255-430-0



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٢٩٢٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٢٩٢٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

لعَمرِكَ مَا ضاقتْ بلادٌ بأهْلها

ولَكنَّ أخلاقَ الرّجال تضيقُ

«شاعر قديم»

العالم الضيق

استبد القلق «بعم عبده» وحط على قلبه هم ثقيل . . ماذا يفعل والأفواه الجائعة لا تعرف الصبر ، وجيبه ليس فيه مليم واحد ، والعلبة الصفيحية الصدئة لم يبقَ فيها غير قليل من التبغ؟! كانت المشكلة بالنسبة لعم عبده - فى ظاهرها - مشكلة القروش ، لكن الحقيقة أن عقله الباطن كان يختزن - فى الوقت نفسه - مرارة ما بعدها مرارة؛ بسبب ابنته الكبرى «روحية» ، لقد طردها زوجها العامل بمصانع الزجاج . . ويا لشراسة زوجها وجفاف طبعه وشدة استهتاره!! وروحية لا تكف عن البكاء ، فهى تريد أن تعيش . . أن ترضى بالهوان فى ظل زوجها ، فهذا أفضل بكثير من أن تحيا بلا رجل . . فأبوها بواب مسكين . . مرتبه ثلاثة جنيهات . . وبعض الصدقات ، وقروش قليلة يسقطها سكان العمارة فى يده . . كلما أدى لهم شيئًا من الخدمات ، أو اشترى من الخارج بعض ما يحتاجون إليه ، ومع ذلك فالرجل يعول أطفالاً أربعة وزوجة ، هذا عدا ابنه فتحى لا يكلفه شيئًا ، بل هو مصدر من مصادر رزقه؛ لأنه يبعث إلى أبيه بجنيه كامل أوائل كل شهر .

وصحا عبده من هواجسه عندما لسع أصابعه عقب السيجارة الرفيعة التى يجذب أنفاسها فى ذهول . . ونظر إلى الحجرة المظلمة

الصغيرة . . التى ترقد فى ذلة تحت السلم . . الأقدام فى صعود وهبوط ، والأحذية اللامعة تضرب درجات السلم من آن لآخر ، وضحكات السكان تجلجل ، وصراخ أطفالهم يبدد السكون . . وحجرة عم عبده كما هى صامتة مظلمة تتلقى ضربات الأحذية الصاعدة والهابطة فى سكون واستسلام . . وفى داخلها - قرب الباب - تجلس «روحية» محمرة العينين ، فى انتظار زوجها الذى طال غيابه ، وأمعن فى جفوته ، والقلق يستبد بها كما فعل بأبيها ، وخوف مبهم يرعش كيانها ، ويزيد من ضربات قلبها ، ويهتف ضميرها «أولاد الحرام كثيرون . . لكن هذا غير معقول ! ! إن بطنى منتفخ . . سوف أنجب له طفلاً جميلاً . . لن يفرط فى غيابه . . » ، وقليل من الرضى العليل الشاحب أخذ يسرى فى قلبها .

وتململ عم عبده عندما سمع صوت صاحبة العمارة تلك العجوز البخيلة التى تعيش وحيدة فى شقتها :

- «بقرش طعمية يا عبده . انطق يا بجم . . واتحرك» . . وفى الوقت نفسه انطلق صوت ساكنة أخرى يقول :

- «هاتِ لنا لترين جاز يا عم عبده . . » .

وضحك طفل وهو يصعد السلم ، وترنم : «لا والنبى يا عبده . . قصبك سوس يا عبده . . » وقبل أن يتكلم عم عبده ، رأى زوجته أم فتحى قادمة ، كانت حانقة دائمًا ، ساخطة على زوجها . . وعلى الناس ، لا يرضيها شىء ، وسددت نظرات حانقة إلى زوجها ، وهمست بصوت كالفحيح :

- «قم يا راجل . . قم ربما أعطتك واحدة من الساكنات قرشًا . . أنسيت أننا لا نملك رغيف العيش؟! وماذا يهمك وأنت جالس كالسلطان تدخن السجاير؟ قلبك ميت . . يا لك من رجل؟!».

وتنحنح عبده، وآثر الصمت، لم يرضَ أن يعرض نفسه لعاصفة هوجاء من عواصف زوجته، ففى قلبه الحزين الكثير من العواصف والألم والعذاب، وانتصب بعوده القصير، وجلبابه القديم المرقع، وقدميه الحافيتين، وطاقيته المتآكلة، وخطا خطوات قليلة، ثم رفع عقيرته رافعًا رأسه فى اتجاه النداء الهابط من أعلى:

- «حاضر . . حاضر . . سآتى حالاً . . .».

وصعد عبده الدرج، ولم يلحظ ابنته روحية وهى تنكمش وتنزوى فى الحجرة المظلمة، وعيناها المحتقنتان تنظران إلى أمها فى توسل وضراعة . . كانت تخاف أمها وكلماتها النارية القاسية، ومن ثم حبست أنفاسها فى صدرها، وصدق ظنها عندما وقع بصر أمها عليها وصرخت فيها:

- «فيم البكاء يا سبب المصايب؟! دبور زن على خراب عشه . . النساء كلهن يعشن فى أمان الله مع رجالهن . . وأنت!! ماذا أقول؟ مصيبة من السماء . . خيبة وحطت علينا . .».

ولم تجب روحية بغير الشهقات المكتومة، وبمزيد من الدموع، وأخذت أمها تصر على أسنانها فى غيظ:

- «لك حق . . هذه هى نتيجة التدليل . .».

فردت روحية بنبرات كسيرة:

- «أى تدليل يا أمى؟! إنى أتعذب وأصبر وأريد أن أعيش لكنه أمسك بى، وحملنى إلى الشارع، ثم أغلق الباب فى وجهى لأنى لمته على تدخين الحشيش، ثم طلبت منه مصروف البيت، هذه هى جريمتى..».

وصاحت أمها كجلاد أرعن:

- «اخرسى يا مجرمة..».

وساد الصمت العاصف من جديد.. الدموع فى عينى روحية.. والصرامة والقسوة على ملامح أمها.. وعبده خرج إلى الشارع ليشترى الطعمية والجاز، وخطواته تنتقل فى بطء وذهول، والعربات والناس والحيوانات والباعة يملئون الشارع بالضجيج، والمذياع يترنم بأغنية «مر الخريف بعده دبل زهور الغرام.. والدنيا من بعده هوان ويأس وآلام»، وضوء الشمس يغمر الشارع والغبار المثار يبعث على الحنق والضيق، وحركة غير عادية تحدث خلف عم عبده، فيفيق من أحلامه، وينظر خلفه، فيرى عربة فاخرة، ورأس رجل أنيق تطل من نافذة العربة الأمامية، يضع على عينيه منظاراً أسود ويزعق:

- «فتّح يا بهيم.. أنت سكران يا لوح؟».

وتمتد أيد كثيرة، فتجذب عم عبده فى عنف وتجره إلى الرصيف، وعشرات الكلمات تقرع أذنية: «كدت تضيع تحت

عجلات العربة . . ربنا كتب لك عمراً جديداً» ولم يقفْ الأمر عند هذا الحد . بل رنت على قفاه صفعة قوية ، فترنح لها ، وترقرقت فى عينيه الدموع ، ودارت به الأرض ، وهتف فى صوت مبحوح :

- «حرام عليك يا شاويش» .

وضاعت عبارته فى خضم الزحام وفى خضم كلمات الملام والتقريع ، ولم يدرِ عم عبده كيف ابتسم . . ابتسم ثم قبل يده ظهراً لبطن وغمغم :

- «حقك علىّ يا سيدنا البيه . . جاءت سليمة . . » .

وما إن انفض السامر حتى اشترى الجاز والطعمية ، وعاد . . لكنه أخذ يستعيد ما حدث . . ماذا لو مات؟ ووجد نفسه لا يرتعد لورود هذا الخاطر على رأسه . . الموت . . لا شىء . . الموت حق . . أتراه يستريح؟ ! لكن عز عليه أن يترك «روحية» فى تعاستها وانتظارها القاسى ، وأطفاله الصغار بلا عائل . . وفتحى ابنه . . الشاويش فتحى . . ابن جلال . . «على فكرة عندما يأتى فتحى لزيارتنا سوف أعتب . . لماذا لم يرسل الجنيه كالمعتاد؟ إنى أنتظره من أسبوع ، ترى هل سيرسله اليوم؟ لا بد ، من المستحيل أن يتأخر أكثر من ذلك . . » .

وانتعش فؤاده لهذا الخاطر ، لقد حلت المشكلة ، وروحية حتماً سوف يأتى زوجها ليأخذها إن لم يكن من أجلها فمن أجل الجنين الذى يسكن أحشاءها ، وهرول مسرعًا صوب البيت ، وقد قرر أن

يجلس على الباب فى انتظار ساعى البريد الذى سيحمل له خطاب فتحى، وأخذ يتمتم بدعوات خافتة، تنبعث من أعماقه مخلصة لحوحة، لعل الله يكتب له الفرج، ويبدد همومه وقلقه، وخاصة أن العيد على الأبواب. . وأيام العيد خير وبركة. . واندهشت صاحبة البيت وهى تتسلم الطعمية:

- «ما هذا يا عبده؟».

- «طعمية بثلاثة قروش. .».

- يا خبر أسود!!

- «ما الذى أغضبك؟».

- «ألم أقل لك بقرش واحد يا حمار. .».

وأدرك عبده الخطأ الذى وقع فيه، لقد عكس الأمر، واشترى الجاز بقرش والطعمية بثلاثة، وقبل أن يستطرد فى أفكاره سمعها تقول:

- «خدها يا روحى ورجّعها كلها. . لا أريد طعمية. .».

- «ثلاثة قروش حاجة بسيطة».

- «كلمة واحدة. . امش. .».

ومن الحجرة المظلمة القابعة تحت السلم جاءه صوت زوجته؛ محملاً بالشتائم واللعنات، ناعية عليه خيبته الكبرى التى تلازمه طول حياته، وهم أن يسألها برغم ذلك عن ساعى البريد هل جاء أم

لم يجئ، لكن طفلاً من أبناء السكان كان يجذبه من كمه ويقول: «ماما تقول لك هات لى طعمية . . »، وفى غمار الضوضاء والضيق نسى عبده أن يسأل عن ساعى البريد . . وساعده على هذا النسيان اطمئنانه التام إلى أن الساعى لابد وأن يمر كل صباح بالشارع . .

وعاد عبده إلى الشارع من جديد، وطفله وطفل الآخرين يتشبثان بأذيال ثوبه . . هذا يريد طعمية، والآخر يحلم بالبالونة الحمراء . وعبده بينهما لا يفكر فى الطعمية أو البالونة بل يفكر فى ساعى البريد والجنيه المرسل من فتحى، ويفكر فى روحية المسكينة، وعلى الرغم منه أخذ يفكر فى زوجته الثائر . . إنها دائمًا ناقمة . . هى التى أتت به من القرية إلى هنا منذ عشر سنوات . . وهى نفسها اليوم تحاول أن تعيده إلى القرية لكن ماذا يفعل هناك؟ هل يضمن أن يعطيه أحد فدانًا يزرع فيه؟ وتمتم عبده: «صحيح الفقر كفر . . حكمتك يا رب».

وأدى عبده مهمته وعاد، كان ابنه لم يزل يبكى من أجل الطعمية . وابن السكان يلوح بالبالونة الحمراء فى مرح وسعادة تشرق من عينيه وملامحه، لكن أملاً واحدًا لم يزل يشرق فى ظلمات حياة عبده . . ساعى البريد الذى سوف يحمل خطاب فتحى، لكنه بلغ البيت وأمله لم يتحقق بعد، لسوف يشعل سيجارة رفيعة يسلى بها الصمت والانتظار الممل، ولم يكد يفتح علبته الصفيحية، ويضعها بين أصابعه حتى جاءه الصوت الذى تمناه .

- «يصل ويسلم ليد الأستاذ عبد المنصف دربالة».

كان ساعي البريد يقف بالباب وخطاب في يده، فبقي «عبده» جالسًا كما هو بعد أن هزته المفاجأة السارة وضحك.. ضحك حتى كاد يستلقي على ظهره من شده الانفعال، ونظر فوجد زوجته هي الأخرى تبتسم ابتسامة شحيحة وقلما كانت تبتسم. أما روحية فقد بقيت ساهمة شاحبة الوجه، وعيناها كما هما محتقنتان دامعتان، فلم يقف أبوها عند منظرها كثيرًا، بل تذكر كلمة «الأستاذ» التي تسبق اسمه فوق غلاف الخطاب، فعاد إلى الضحك من جديد، ثم هب واقفًا وهو يقول لأم فتحي:

- «مبسوطة من ابنك؟ جعلني «أستاذًا» على آخر الزمن.. الله يسامحك يا فتحي..».

واقترب عم عبده من الساعي الذي تفحصه في اندهاش وهو يتمتم:

- «أين الأستاذ عبد المنصف دربالة؟».

فطأطأ رأسه في خجل وهمس:

- «أنا.. لكن لا أستاذ ولا حاجة.. الحكاية مجرد نكتة من فتحي ابني.. الشاويش فتحي ربنا يطيل عمره.. طمأني أولاً على الشيك وحياتك ثم اقرأ لي الخطاب بعد ذلك.. محسوبك أمّي على قد حاله..».

وغامت الدنيا في عيني عم عبده، وكاد يتهاوى إلى الأرض وتلاحقت ضربات قلبه حينما رأى عيني الساعي تنطقان بالحزن، ووجهه جامد مكتئب . .

- ماذا؟ هل أصاب فتحي مكروه لا قدر الله؟» .

فقال الساعي وهو يطوى الخطاب ويقدمه إلى عبده في عجلة :

- «لا . . أبدًا . . ليس بالخطاب أي شيك . . لكن به . . به . . » .

- «ماذا به؟» .

- «ورقة طلاق باسم روحية عبد المنصف دربالة . . » وتلقف عبده الورقة بأصابع متشنجة، وقد غاض الدم من وجهه، واستندت زوجته إلى حائط الحجرة - عالمها الضيق - كتمثال من الحقد الغاضب، بينما ندت من روحية صيحة رعب والتياع، وأخذ أنينها المتقطع ينصب في أذني أبيها كلحن جنائزى دامع . . وهدر صوت صاحبة البيت ممزقًا الصمت :

- «يا عبده . . أريد علبة سجائر «ماتينيه» حالاً . . لأني خرمانة . . خرمانة يا عبده . . » .

●●●

قلوب تائهة

«قصة فى ست حلقات»

[١]

تلفت «سالم» حواليه فى دهشة، ورفع عينيه إلى السماء الزرقاء الصافية، وسرعان ما نزل ببصره إلى الأراضى الفسيحة الممتدة امتداد الأمل.. كانت خضرة الأرض، وزرقة السماء، وانفساح الآفاق أمامه حلمًا رائعًا جميلا تحقق.. وتنفس بعمق.. وتنهد، وحاول أن يرفع يديه صوب السماء شاكرًا لله هذه النعم التى يحسها أكثر من غيره آلاف المرات، غير أنه لم يستطع.. كان القيد الحديدى لم يزل يغلل يديه.. وحارسان يحيطان به يمينًا وشمالا.. وعربة مغطاة بشبكة سلكية تبدو على بعد أمتار قليلة.. ومن خلفه بوابة السجن القاتمة المغلقة.. وثلاث سنوات فى زنزانة ضيقة.. وغمغم سالم فى ذهول:

- «المرض نعمة.. نعمة كبرى».

وقهقه حارسه:

- «السجن يذهب عقولكم دائمًا.. الناس تستعيذ من المرض وأنت تسميه نعمة..».

فلم يكترث سالم لما قاله الحارس، وظل محملقًا فيما حوله، كان جائعًا إلى الحياة بكل مظاهرها.. ومن ثم أراد أن يضحى بأى شىء، ليعود إلى أحضانها من جديد، ويملأ روحه وكيانه من هذا الوجود الحى النابض. . السجن موت رهيب. . والخروج منه بعث جديد. . وتمتم سالم مرة أخرى:

- «لو عشت مثلى ثلاث سنوات فى السجن لعلمت أن المرض نعمة. . لأنه يتيح لنا الفرصة للخروج من هذا الكهف، والذهاب إلى القصر العينى للعلاج. . ما دام الإفراج أمرًا بعيد المنال، فلا أقل من أن نخرج لفترة ثم نعوذ بعد الشفاء. . إن أمامى بقية عشر سنوات كاملة. . ألا ترى أن عشر سنوات شىء مفزع حقًا؟! إنه لموت بطىء. . عذاب محرق. . ».

قال الحارس فى برود:

- «لو كان فى رأسك عقل لما أوقعت نفسك فى هذا المأزق. . ».

وتوقف الحارس فجأة، ثم قال فى لهفة:

- «ما هى جريمتك؟».

- «لا جريمة على الإطلاق. . ».

قال الحارس وهو يدفعه إلى عربة «الترحيل» التى ستنقله إلى القصر العينى:

- «كل سجين منكم برىء. . إن إصراركم على البراءة جريمة

أخرى . . لا جريمة . . شيء جميل . . المرض نعمة . . رائع . . إن جهاز تفكيركم مختل تمامًا . . كلكم تستحقون ضرب الرصاص . . مثل خيل الحكومة . . » .

وبقى سالم على شروده ودهشته بعد أن ركب العربة ، ومن خلال نافذة صغيرة فى جانب العربة كان يواصل النظر إلى كل شيء . . الأطفال . . النساء . . المزروعات . . الحيوانات كل شيء جميل . . جميل . . له طعم خاص . . حلو المذاق . . والتفت سالم إلى حارسه مرة أخرى وقال :

- «انظر . . الأطفال والنساء . . منظر يسعد القلب . . ألم تسمع عن الحكيم الذى قال : مجتمع بلا أطفال ونساء مجتمع متوحش . . » .

فرد الحارس فى سخرية :

- «إنه حكيم أبله مثلك . . إن الساعات التى أقضيها فى البيت تحيلها زوجتى إلى جحيم لا يطاق . . والأطفال - سبعة ورحمة والدك - لا يكفون عن الصراخ والعراك وتحطيم الأطباق . . هذه الوحوش الصغيرة تحرمنى لذة النوم والراحة . . » .

وصمت فترة ، ثم استطرد قائلاً :

- «هيه . . كان الإمام على يقول عن النساء : اللذة بهن يسيرة ، والحسرة بهن كثيرة . . كلام جميل ورب العزة . . » .

ولانت ملامح الشرطى ، وابتسم فى رقة حينما قدم له سالم سيجارة ثم أشعلها له ، وتمتم الشرطى :

- «لا تحـزن . . ياما فى السـجن مظاليم . . بكرة تفـرج . . حضرتك متزوج؟».

- «لا والله . . ».

- «ما تهمتك؟».

- «عندنا فى الصعيد إذا قتل رجل من أسرة معادية اتهموا أهم شخص . . ولا عبرة بالفاعل الأصلى . . تلك هى الحقيقة . . ».

- «متهم بالقتل؟».

- «جريمة لم أرتكبها . . ».

- «ربك كريم . . و . . حضرتك موظف؟».

- «محصل ضرائب . . ».

- «لا حول ولا قوة إلا بالله . . اعذرنى يا حضرة الأفندى . . بعض كلماتى كانت قاسية بعض الشىء . . لم أستطع تمييزك فى بدلتك الزرقاء . . إنها تطمس الكثير من معالم الإنسان . . ».

وشعر سالم بيد الحارس تتحسس القيد الحديدى، ثم يحاول تحرير يديه، متعذراً عن تركه هذه المدة الطويلة، واستطاع سالم بعد ذلك أن يجفف عرقه، ويمسح على فمه ويمسك سيجارته فى حرية تامة، وينفث دخانها فى راحة، كانت العربة قد بلغت الشارع الكبير المليء بالناس والعربات والباعة والضجيج، وفتح سالم ذراعيه وكأنه يريد معانقة هذه الدنيا بكل ما فيها، ونسى إلى حين

أن أمامه سبع سنوات طوالاً عراضًا لا يعلم إلا الله نهايتها، ثم عاد إلى حارسه قائلاً:

- «في السجن يا باشجاويش يجد الإنسان الطعام والشراب والكساء والنوم لكني جائع دائمًا، ظمآن باستمرار.. قلق لا أنام إلا غرارًا.. إن قتل الإنسان خير من تركه في السجن.. لا يصح أن يسجن الإنسان.. ألست معي في هذا؟».

وبان الحرج في عيني الحارس، لم يكن يتفق في الرأي مع سالم، كل منهما على طرفي نقيض، سالم يعبر عن تجربته الخاصة بآلامها وحرمانها، والحارس يترجم عن فلسفة مغايرة تمامًا، وبعد تردد قال:

- «الحقيقة أن كل شيء -دون الموت- يهون.. كل شيء له علاجه إلا الموت.. نهاية حاسمة قاصمة.. وإن كان الله قد كتبه على الجميع.. على السجان والمسجون.. على الآمر والمأمور».

وبلغا القصر العيني، ونزل سالم يتبعه حارسه، لشد ما سيطر على سالم الخجل، فتصاعد الدم إلى وجنتيه، وتبللت عيناه بنذر الدموع، وهم بالمسير لكن خطواته كانت مرتبكة، هل نسي المشي؟ بعض النظرات الفضولية تلاحقه وتحاصره وهو يتجه صوب عيادة «المسالك البولية»، فيزداد ارتباكًا وخجلاً.. وحنقًا أيضًا.. إن هؤلاء الذين ينظرون إليه لا شك يصمونه بالإجرام والإثم.. لا يعرفون عن حقيقته شيئًا.. آه لو علموا الحقيقة لأشفقوا عليه.. بل

لانهمرت الدموع أسى من أجله . . لكن ما الحيلة والبدلة الزرقاء . . تصرخ بالإثم والعار والجريمة؟ ليته كان قاتلاً إذًا لما حزن على السنوات التى يريقها من عمره فى زنزانته الضيقة، ولما شعر بالحرج والخجل وهو يسير مطأطئ الرأس وسط عالم يحتقره أكثر مما يشفق عليه، ويصب عليه اللعنات أكثر مما يواسيه بكلمات العزاء.

***

وبعد ساعة أو أكثر، كان سالم يجلس على سرير نظيف لين، ويلبس بدلة بيضاء، وعلى بعد أمتار منه شرطى مكلف بحراسته ومعه غدارته، ومن حوله الأسرة البيضاء، وعشرات المرضى والممرضات والأطباء والزوار يروحون ويجيئون . . كل شىء نظيف . . وأبيض، على النقيض من السجن تمامًا . . كل شىء فيه كالح . . أزرق . .

ومن بعيد . . فى حجرة مقابلة لحجرة سالم . . كانت تجلس امرأة . . امرأة صغيرة السن، مسمسمة . . حلوة التقاطيع . . بشرتها مشرقة موردة . . قلما تنظر لشىء، منهمكة دائمًا فى العمل على الآلة الكاتبة التى توضع أمامها . . تفاحة جميلة . . وجائع أضناه الحرمان . . لكن التفاحة عالية . . عالية جدآ . . وهو لا يستطيع القعود . . لم يزل ملتصقًا بالأرض حقًا لقد نزعوا قيوده إلى حين . . لكن نفسه أو روحه تشعر بالقيود . .

وسأل سالم أحد المرضى :

فجاءه الجواب :

- «الست مشرفة اجتماعية».

وتاه سالم فى عالم آخر روحه تشتعل بأشياء غامضة، وقلبه يرتعش كقلب طفل، ونظراته لا تتحول.. نسى السنوات السبع الباقية، والحارس القابع بالقرب منه، والبدلة الزرقاء التى خلعها منذ ساعة، وجريمته البشعة.. القتل.. ونسى المغص الكلوى والحصى الكامن فى أحشائه..

ويبدد أحلامه صوت انبعث إلى جواره:

- «حضرتك من أى بلد..».

وبدون وعى قال:

- «البدارى».

وإلى جوار السرير كان يقف أحد المرضى عارى الصدر كاسى الكتفين والذراعين، وأحد سرواليه أقصر من الآخر، عيناه جاحظتان، يبدو عليه المرض.. والفقر وشىء من البلاهة، وهمس الرجل:

- «محسوبك.. فرغلى.. بلديات يا ولد العم..».

قال سالم فى شىء من البرود:

- «تشرفنا..».

[٢]

وفى الأيام التالية كان فرغلى عبئًا ثقيلاً على «سالم»، يرهقه دائمًا بزياراته المتكررة، ويصدع رأسه بالكلام الكثير الذى يتناول

فيه المرض وحوادثهم وينهش فى عرض الحكيمات والممرضات والتلميحات، ويقدح فى حق الأطباء، ومن آن لآخر يطلب من سالم سيجارة . . أو رغيفًا . . ومع ذلك فقد كان سالم يجد لديه شيئًا من التسلية وتضييع الوقت . . وذات يوم قال سالم :

- «متى تأتى الست المشرفة الاجتماعية لدراسة حالتى؟» قال فرغلى فى خبث :

- «عندما يئن الأوان . . الست «ناهد» أم سيوة . . فيها الخير والله . . » .

كان سالم متلهفًا على التعرف إليها، وكثيرًا ما كان يحلم بالحديث معها، فيدرب نفسه على ذلك فى الخيال، وينتقى الألفاظ، ويبتكر الموضوعات التى ستكون محور حديثهما، لكم تمنى أن يتكلم معها عن نفسه . . عن آلامه . . عن ضياعه وسط أحداث ظالمة جائرة، عن أشواق قلبه السجين . . كان يبحث عن قلب حنون يركن إليه . . ويبثه أساه، لكن الحقيقة المؤلمة كانت تصدمه من آن لآخر . . ألا وهو أنه سجين بتهمة القتل، وأنه رهين البدلة الزرقاء، وعدو الحياة والمجتمع، فهل من المعقول أن تغدق عليه الحياة الحب، ويفتح المجتمع له قلبه رغم العداء الظاهر بينه وبينهما؟! ومع ذلك فقد علمه السجن أن يصبر . . بصبر طويلاً . . وألا يفقد الأمل مطلقًا . . وأن ينسى - إلى حين - مأساته بمرور الزمن . .

والتفت سالم إلى فرغلى قائلاً:

- «فرغلى».

- «عيون فرغلى».

- «خذ سيجارة.. أنت ابن حلال..».

- «ربنا يطيل عمرك.. يا ابن الكرام.. ربنا يفك سجنك..».

- «أتستطيع» أن تذهب إلى الست؟! قل لها إنى فى حاجة إلى بحث حالتى.. بسرعة يا فرغلى..».

أشعل فرغلى السيجارة، وأسرع نحوها، لقد أدرك رغم بلاهته أن السيجارة هى الثمن لذلك، وإن لم يدرك أن هذه السيجارة هى العملة الجديدة التى يتعامل بها السجناء، أولئك الذين لا يسمح لهم بالتعامل بالنقود.. وعاد فرغلى بعد فترة، وقال:

- «مشغولة مع البيه الدكتور.. سوف تعود بعد لحظة..»

بعد أن غادر فرغلى حجرة سالم، شعر فى وحدته بمزيد الحنق، ساوره عداء غامض للطبيب الذى شغل ناهد عنه، الفرق بين سالم والطبيب هو الفرق بين السترة الزرقاء والمعطف الأبيض النظيف.. بين رجل ضائع وصاحب مركز اجتماعى مرموق، بين سجين وحر، وحاول سالم أن ينسى، لكن كيف ينسى وعيناه من آن لآخر تتركان سطور الصحيفة التى معه، وتتجهان على الرغم منه إلى حيث يقف الطبيب مع ناهد، وابتسامة خجولة ترقص فوق ثغرها،

وهو يطوح «بمسماعه» وكأنه سلسلة ذهبية، ولا يكاد يستقر فى مكان، أو يكف عن الحديث والضحك، وهى تستجيب لنكاته بالابتسام والضحك أحيانًا، لا حاجز - على ما يبدو - يحول بين تبسطها فى الحديث، ولا شىء يعكر صفوهما.. وسالم كما هو فوق سريره محروم من الحرية.. والحب.. والصداقة. الظلم هو الذى رمى به خلف الأسوار، والظلم أيضًا هو الذى يجعل مثل هذا الطبيب ينعم بالصداقة والحب مع الممرضات والحكيمات، ومع غيرهن فى الخارج.. مع البت المشرفة الاجتماعية أيضًا.. فى حين يبقى سالم هكذا بلا شىء.. لقد كان يظن أن مجتمعًا بلا نساء وأطفال مجتمع متوحش.. لكن ها هو يرى النساء والأطفال.. لكن المجتمع لم تنتف عنه صفة الوحشية.. يبدو أن حارسه كان على صواب حينما سخر من آرائه.

ووثب إلى ذهن سالم فجأة سؤال: «ماذا يريد من الست المشرفة على وجه الدقة؟» ولم يتوانَ فى الإجابة عن نفسه، وكانت إجابته صريحة.. عارية.. وقحة تمامًا مثل الإجابات التى تصدر عن رفاقه فى السجن حين يتحدثون دون مواربة أو مراعاة للذوق.. وغمغم: «إنها امرأة شهية.. وفيها شىء لا أدرى كنهه.. قوى مجهول تشدنى إليها، غير أنه يقف بينها وبينى عازل سميك.. لو كان هذا العازل شيئًا ملموسًا لحطمته.. لقتلته.. ولكانت أول جريمة قتل أتشرف بارتكابها..».

وعاد ليتصفح الجريدة من جديد..

لكن فرغلى دفع باب الحجرة فى عنف مزعج، وهتف:

- «زوار قادمون إليك يا سى سالم.. معهم عنب وبطيخ ورائحة الفراخ والحمام تفوح من سلتهم.. نهارك أنس يا سى سالم..».

ونحى سالم الجريدة، وخفق قلبه خفقات سريعة متلاحقة، واعتدل فى سريره، وفى لحظات كانت حجرته ملأى بالزوار، الأفواه تتزاحم لتطبع القبلات على جبينه، والأيدى تتسابق لتعانقه، وعشرات الكلمات تغرقه فى خضمها: «ألف حمد لله على سلامتك يا سالم لك وحشة يا حبيبى. الله يجازى أولاد الحرام.. إن شاء الله تخرج بالسلامة.. فرج ربنا قريب.. قضاء أخف من قضاء.. من يعلم؟ ربما كان السجن بديلاً لشىء رهيب نجاك الله منه..».

وخفت قليلاً حرارة اللقاء، وجلس البعض، بينما بقى البعض الآخر واقفًا، وهدأت أعصاب سالم وانفعالاته، وأخذ يحيى زواره واحدًا واحدًا، كل باسمه، لكنه لاحظ شيئًا ما فى وجوههم، ودموعًا لا تكاد تبين فى عيونهم، وارتجف سالم، وجال فؤاده إحساس بكارثة متوقعة وهمس فى صو مرتعش:

- «أين أحمد أخى؟.. لماذا لم يأتِ معكم؟؟».

وكأنما كانت كلماته هى البداية لتدفق دموعهم وشهقاتهم، وصرخ كالمجنون:

- «قولوا.. ماذا حدث؟».

وتقدم أحد أقربائه منه، ثم أمسك بذراعه فى غلظة، وجذبه فى عنف، وقال فى نبرات كالفحيح:

- «كن رجلاً..».

- «ماذا تعنى؟».

وفى صراحة قاسية وقحة كصراحة زملاء سالم فى الزنزانة قال الزائر:

- «قتلوه.. قتله أعداؤنا..».

وصرخ سالم، ثم انفجر باكيًا.. كان يقبض بأصابع متشنجة على مفرش السرير، ويدق الأرض بقدميه، ويضرب رأسه فى الحائط، لكن زائره أمسك به، وهزه مغتاظًا، وهدر:

- «أنت امرأة.. ألف خسارة على التعليم الذى تعلمته..».

وحط على الجميع سكون عميق للحظات، قطعه الزائر الشرس بقوله:

- «لكن كن مطمئنًا.. لقد أخذنا بثأره فى نفس الأسبوع. ذبحنا القاتل وعلقنا رأسه فى شجرة سنط أمام غيطهم.. ولم نأت لزيارتك إلا بعد أن مسحنا الدم بالدم.. ولن يجف الدم بعد اليوم.. إما أن يفنوا وإما أن نفنى جميعًا.. والآن كن رجلاً وجفف دموعك، ووزع الشربات على زملائك فى المستشفى..».

وأقبل الحارس مهرولاً، ودخل الحجرة متغيراً:

- «تفرقوا.. اعملوا معروفًا.. حضرة الضابط فى المرور..

سالم فوق سرير وحده، والدنيا من حوله راكدة ميتة، كل شىء يوحى بالتقزز والملل والعذاب، وتأوهات بعض المرضى وأنينهم يطن فى أذنيه كنغم حزين دامع، وعيناه تفيضان على الرغم منه، وصورة أخيه المسكين أحمد.. أحمد الصغير بشبابه.. وعوده الريان.. وسمرته الخمرية النبيلة.. وقريتهم الصغيرة فى الجنوب على شاطئ النيل بنسائها وأطفالها.. أشياء كثيرة تزدحم فى ذاكرته.. ومستقبل أسود غير محدد المعالم.. وسنوات سبع تنتظره.. وخناجر قاسية تمزق فى قلبه.. وألسنة من اللهب الخارق تشعل روحه.. كل هذا يغرقه فى بحر عميق ثقيل لا قرار له..

وشعر سالم بحركة إلى جواره، فأفاق من هواجسه السوداء، ونظر فرأى فرغلى كان يتمسح فى الحائط ككلب أجرب، ثغره قد اتسع عن ابتسامة بلهاء لا معنى لها، واللعاب يبلل شفتيه، وعيناه تفتشان هنا وهناك، وغمغم فرغلى فى خجل مصطنع:

- «نفسى فى العنب يا سى سالم.. لم أذقه من زمن بعيد.. ولو تكرمت أعطنى ملعقتين من أرز.. وكبدة الفراخ.. صحتى ضعيفة وليس فى استطاعتى أن أتغذى كما يجب.. أطال الله عمرك.. ورزقك الفرج والسلامة..».

وأشار سالم إلى كومة الطعام الموضوعة تحت حوض الماء، وقال وهو ذاهل:

- «خذ ما تشاء . .».

ولم يضع فرغلى الوقت، بل انكب على الطعام يحمل كمية من كل نوع، لكنه لم ينسَ وهو يغادر الحجرة أن يقول:

- «لا تنسَ نصيبى فى البطيخ . . البطيخ مع الجبنة آخر انسجام . .» .

[٢]

لم تكن هذه أول مرة يحس فيها «سالم» أن الحياة قبيحة . . كثيراً ما راوده هذا الشعور وخاصة فى الأيام الأولى من سجنه، حيث لا أحد يعطف عليه، كل مشغول عن الآخر بأفكاره الشخصية، زملاؤه فى الزنزانة لا يأبهون له كثيراً، أحدهم يبكى من أجل امرأته التى طلبت الطلاق ولم تواسه فى محنته، وآخر غدر به شريكه فى تجارة وابتلع نصيبه . . فهو ثائر ساخط لا يتحدث إلا عن المال الضائع . . وثالث لم يزل يتجر بالمخدرات رغم أنه سجن بسببها، ومع ذلك فهو يبيعها خفية للسجناء المدمنين . . والسجانون هم الآخرون يؤدون عملهم فى جفاف، وينفذون الأوامر دون رحمة . .

أجل . . لم تكن هذه أول مرة يحس فيها سالم أن الحياة قبيحة، غير أن إحساسه بهذا القبح قد بلغ الذروة، حتى أن الست المشرفة «ناهد» عندما طرقت باب حجرته ثم صافحته وجلست إلى جواره لم تستطع أن تمسح عن قلبه مثل هذا الشعور . .

لطالما نظر إليها . . كان يعبدها بنظراته من بعيد . . حتى لكأن الدنيا قد خلت من كل البشر الذين يستحقون النظر إلا هى،

أحلامه فى النوم تحوم حولها، وشطحاته فى اليقظة لا تفكر إلا فيها .

لقد قدمت إليه فى قمه مأساته، كانت بالأمس كل شىء فى حياته الجديدة، أما اليوم فقد أشرك بها الأحداث الجسام التى تهزه وتهز أسرته هزًا عنيفًا . وظل سالم شاردًا وهى جالسة إلى جواره، ولم يشعر بوجودها الشعور المتوقع الذى سيطر على كل خياله ذات يوم . . ومع ذلك فقد كانت ناهد هادئة . . وجهها رائق وكأنه لا يعرف الكدر ولا الزوابع . . تتحرك بلا انفعال وكأنها بلا قلب، ابتسامتها توحى بالمجاملة أكثر مما توحى بالمشاركة والتعاطف . . إنها فى مهمة رسمية، وهذا ما يكاد يقتله، ويزيده كربًا على كربه :

وهمست ناهد من شفتين رقيقتين :

- «أرجو أن تكون صحتك على ما يرام . . » .

فأجاب بإيجاز :

- «الحمد لله . . » .

لعل سالم أول رجل فى المستشفى لم يرحب بناهد الترحيب الواجب، لعله لم يدرك ذلك بادئ الأمر، أما هى فقد فطنت إليه لأول وهلة، وشعرت بغير قليل من الحرج، لكن طبيعة عملها سرعان ما أبعدت عنها ما راودها من حرج، وتذكرت - وقد وقع بصرها على الحارس القريب من الباب - أن الذى أمامها ليس

مريضًا فحسب بل وسجينًا أيضًا، وفى السجناء غلظة لم تجربها بنفسها وإن كانت أمرًا مفروضًا لا ينكره أحد، ومسحت ناهد المكان بنظراتها وفكرت: «إنه ليس سجينًا عادياً. . بعض الكتب إلى جواره. . وكذلك الصحف والمجلات. . ومعجون أسنان وفرشاة. . » من أين تبدأ ناهد، لم تفكر فى أمر أحد مثلما فكرت فى أمر هذا الرجل، إنها تزاول عملها مباشرة دون مقدمات أو ارتباك، ما عليها إلا أن تسأل عن المريض. . عن اسمه وسنه وحالته الاجتماعية وزوجته وأولاده وعمله. . إلخ، ثم تجمع أوراقها وتمضى مع بضع كلمات مألوفة عن التمنيات الطيبة، ووعد بالمساعدة. . والسلام. .

- «لعلك سعيد بإقامتك هنا. . ».

قالتها ناهد، محاولة جره إلى الحديث مرة أخرى، فرفع بصره إليها متأمِلاً، وواجهته هى بدورها بنظراتها الصافية، وبشرتها الرائقة، وحمرة الخجل فى خدها، الخجل الذى هو صفة ملازمة لا تغير طارئ عليها، وفى أعماقه ترددت حكمته القديمة «مجتمع بلا نساء وأطفال مجتمع متوحش. . » أخذت ملامح وجهه تلين. . أنامله المنقبضة أخذت تتوارى. . تذوب. . وبعد لحظات شعر أنه أصبح طبيعياً لحد ما. .

وغمغم فى ارتباك:

- «الإقامة هنا أحسن من السجن على العموم. . ».

وأحست ناهد أن كلمة «السجن» كحجر صغير قذف به في وجهها، لا تدرى لماذا خافت حقيقة ما يعتمل في نفسها، واستأنفت حديثها:

- «كنت مرحًا سعيدًا في أيامك الأولى هنا.. هذا ما بدا لي.. لكني لاحظت تحولاً، منذ فترة قصيرة، يطرأ عليك..».

فقال في يأس:

- «والحقيقة.. أن كل شيء بالنسبة لي لا طعم له.. من فقد الأمن والحرية لا يجد لهما عوضًا في أي شيء.. ثم إني أشعر بوجودي كوباء.. أفهمت؟؟ كوباء..»

- وباء...

قالتها ناهد في استنكار واشمئزاز، فرد عليها على الفور:

- «أجل.. أترينها كلمة منفرة؟؟ ولم؟! المرض حولنا في كل مكان.. المرض حقيقة كائنة فلماذا تشمئز منها..».

فابتسمت ناهد لتمحو ما ألم بنفسه من ألم، كانت تدرك أن فيه شيئًا من الخشونة وعدم التوفيق في اختيار الكلمات رغم كونه متعلمًا كما خمنت، ومع ذلك فقد كان من الواجب أن تغفر لرجل قضى في السجن سنوات هفوات الخشونة والكلمات المنفرة، ولهذا همست في رقة اعتذار:

- «لا أقصد ذلك بالضبط.. لكني لا أحبك أن تقع فريسة هذا التشاؤم.. ربنا فضله كبير.. و.. ويغفر الذنوب..».

وآلمتـه مـرة أخـرى كـلمـة «الذنوب»، ونظر إليـهـا فى شىء من الاستنكار، وأدركت ناهد على التو أنها وقعت فى نفس الخطأ الذى تورط فيه من قبل، وهمت أن تعتذر لكنه أردف قائلاً:

- الحقيقة أنى لم أرتكب ذنبًا كما تتوهمين. . »

ووجدتها فرصة مناسبة - رغم ما شابهها من سوء فهم - لتدخل فى الموضوع مباشرة، ولتؤدى عملها المنوط بها، فقالت:

- «ففيم سجنوك إذن؟».

عندئذ دخل فرغلى، الابتسامة العريضة التى لا معنى لها، والصدر العارى، وسروال قصير وآخر طويل، ونحافة واضحة، وأسرع فرغلى صوب ناهد، واختطف يدها قبل أن تنتبه لذلك، ثم قبَّلها منحنيًا وكأنه فى ركوع للصلاة، وهو يغمغم:

- «ربنا يعلى مراتبك يا ست ناهد. . أنت الخير والبركة. . »

وسرعان ما سحبت يدها منه وهى تتمتم «متشكرة يا فرغلى» وإن كان قد ضايقها بعض الشىء أنه قطع عليها الحديث فى الوقت الدقيق، لكن ضيقها لم يستمر إذ أسرع سالم قائلاً:

- «. . . كولا . . يا فرغلى . . فى دقيقة واحدة . . حذار أن تتأخر . . ».

وحينما خرج فرغلى همس سالم - دون أن يلتفت إلى اعتراضها:

- «متأسف . . كان المفروض أن أرحب بك منذ البداية . . نحن من الصعيد . الصعايدة كرماء . . لكن اعذريني . . لقد قتلوا أخي . . عندما علمت كاد عقلي يصاب بالشلل . . »

كان كلامه مفاجأة لها ، بل حديثه غريب . . السجن . . الوفاء . . القتل . . كلها تعبيرات مثيرة . . ذات صدى قوي في نفسها ، لكن لم تتردد كلمة «الفقر» - التي كثيرًا ما سمعتها من المرضى - على لسانه . . وآثرت ناهد أن تطلب منه قصته كلها ، فأخذ يسرد لها التفاصيل الكاملة لقضيته .

لم تترك ناهد حجرة سالم إلا حينما جاءت الحكيمة لإعطائه العلاج ، وحينما خرجت لم تستطع أن تطرد من رأسها صورة سالم السجين بخطوط الألم البارزة على وجهه ، وسمات القلق التي تتبدى في أحاديثه وحركاته ، والأحداث الرهيبة التي تزخر بها حياته وحياة أهله في القرية ، وأقلقها أنها بقيت فترة طويلة تفكر فيه وفي مصيره ، وأنكرت على نفسها هذا التمادي ، فمن سالم يكون؟! مجرد «حالة» للدراسة كعشرات «الحالات» التي تقوم بدراستها كل شهر . . ما هكذا يجب أن تفكر فيه . . إنها تنظر إلى ما أمامها نظرة العالم . . لا نظرة الإنسان العاطفي . . أو هكذا يجب أن تكون . . هناك حالات كثيرة غير سالم يجب أن تهتم بها . . بل إن سالم -في نظرها من الوجهة العلمية- ليس مشكلة على الإطلاق ، فهو في الحقيقة لم يرتكب جريمة القتل التي سجن بسببها ، كما أنه

ليس لديه زوجة ولا أولاد ولا مشاكل عادية . . ليس مجرمًا ولا فقيرًا . . لكنه مجرد مظلوم حانق . . لا أكثر . . أما حصوة الكلوة والمغص فمن السهل علاجهما . . وتلك مهمة المستشفى . .

هذا ما كانت ناهد تحدث به نفسها ، كان كلامًا منطقيًا شبه معقول ، ومع ذلك فلم تستطع أن تبعد عن ذهنها صورة الرجل . . الكتلة المتقدة من الانفعال والثورة . . ذلك الجائع إلى الحياة . . والعدل . . والأمن . . و . . والحب . . لا شيء ينقصه لأن يكون رجلاً شريفًا كاملاً . . لولا القيود والوصمة والبدلة الزرقاء . .

بينما كانت ناهد تقاسى حرارة التفكير ، كان سالم مضطجعًا على سريره واضعًا يديه خلف رأسه ، وفرغلى يدلك له قدمه ، لا يكف عن الحركة ، ولا يكاد ينتهى من حديث حتى يمسك بخيوط حديث آخر ، وسالم متجه بنظراته صوب السقف . . أنفاسه تتابع فى هدوء . . ومن آن لآخر يدق قلبه دقات متلاحقة . ويشعر بجسده يرتعش وتشع منه حرارة طارئة . . ثم يثوب إلى الهدوء وإلى الابتسامة الباهتة . . حتى لكأن الساعة التى قضاها مع ناهد ، وألقى بين يديها بما يثقل قلبه ، قد وهبته راحة كبرى ، وأزاحت عن كاهله عبئًا ثقيلاً . .

ومن آن لآخر يزحف بأنامله إلى شاربه الكث الأسود ، وشعر رأسه القصير ، ثم يتحسس عنقه الممتلئ ، وصدره المشعر ، ويعود ليتساءل بينه وبين نفسه : هل آذى شعورها فى شيء؟ أتراه لم يكن موفقًا فيما قاله لها؟ وهل اقتنعت بدفاعه الحار وكلماته البسيطة النابعة من أعماقه المعذبة؟؟ ثم يستعيد كلماتها ، وتعبيرات وجهها ،

واندماجها فى قصته والاقتناع البادى فى عينيها، كل من قابلهم فى السجن أو خارجه كذبوه. شكوا فى كلماته. . أما هى فقد فتحت قلبها لمأساته. . هذا ما يحسه بالنسبة لها. . لكم يكون تعسًا لو كان إحساسه هذا مجرد سراب «خدعة كعشرات الخدع التى يلقاها فى حياته دائمًا. . . » لكن هل الحياة قبيحة بالصورة البشعة التى أتصورها؟» سؤال حائر عاد يجلجل فى رأسه من جديد. . رغم ثرثرة فرغلى التى لا تتوقف، ورغم تدليكه المستمر لساقيه، وسمع سالم فرغلى يقول وهو يهزه:

- لماذا لا ترد يا سى سالم؟

- «هه. . ماذا قلت»؟

- «هل ستعطينى قرشًا؟ والله العظيم نفسى فى العرقسوس. . العرقسوس على فكرة صحى جداً يا سى سالم. . اشرب منه بلاصًا ولا تخف. . على أمانتى. . ».

وتمتم سالم وهو فى شبه حلم:

- «أتعرف الظلام يا فرغلى؟؟».

- «طبعًا. . قريتنا لا تعرف النور طول الليل. . ».

وعاد سالم يقول:

- «أتستطيع أن تفتح عينيك فى الظلام إذا غمرك الضوء القوى دفعة واحدة. . ».

- «أنا مثل القطط تمامًا . . افتح عينى فى النور والظلام . . لو لم أفعل ذلك لفاتنى خير كثير . . أنا أعيش هنا بعينى وأنفى . . إنهما يقودانى إلى المتع . . آخذ ضريبة على كل طعام . . ومع ذلك فلا أشبع . . إن مرضى هكذا يا سى سالم . . اسمه الغدة الدرقية ومعنى ذلك أنى مفجوع . . حكمة ربنا . . آكل كثيرًا لكنى نحيف كعود القمح الجاف . . » .

وتمتم سالم من جديد :

- «النور . . الظلام . . » .

ثم قام من رقدته وصرخ فى فرغلى :

- «أنت حمار . . » .

وكاد فرغلى يقع من الفزع . لكن سالم أخذ يقهقه . . وسرعان ما اندمج فرغلى معه وأخذ يقهقه مثله ، غير أن سالم شعر بما يشبه وخز الإبر فى قلبه ، فعاد إلى شروده وهمس :

- «لكنهم قتلوا أحمد يا فرغلى . . » .

- «الله يرحمه . . » .

- «أحمد أخى . . فى عز شبابه . . » .

- «يا خسارة . . » .

ثم انخرط سالم فى بكاء مرير ، كان جسده كله يهتز معه ، وبعد أن هدأت ثائرته أخذ يجفف دموعه ، ورفع عينيه إلى فرغلى ، كان

فرغلى هو الآخر يبكى ، قد اختفت ابتسامته الواسعة ، وحل عليها حزن صادق أطبق فمه . .

وغمغم : «أتبكى يا فرغلى؟؟ يا لقلبك الطيب؟! لعلك أول إنسان يشاركنى البكاء . . يا لك من إنسان . . قريبى الذى زارنى بالأمس قال لى عندما بكيت : أنت امرأة . . لا يبكى إلا النساء يا فرغلى؟ ! الرجال يبكون أيضًا . . آه . . الإنسان بلا دموع حيوان . . حيوان ، وأنت إنسان يا فرغلى . . » .

فجفف فرغلى دموعه ، وقال وهو يحاول الابتسام :

- «لكنك قلت عنى أننى حمار . . » .

وابتسم سالم من جديد ، ثم رفع وسادته وأخرج علبة سجائره . . وقدم واحدة لفرغلى وهو يقول :

- «خذ . . سيروق مزاجك ويصفو . . » .

- «والعرقسوق . . » .

- «خذ كمان قرشًا للعرقسوق» .

[٤]

شعور غريب كان يدفع «ناهد» لأن تتردد كثيرًا على «سالم» ، لم يكن مجرد عطف على رجل بائس كما ظنت أول الأمر ، ومع ذلك فقد أوهمت نفسها بأنها تؤدى رسالة إنسانية نحو رجل مظلوم . . محطم . . وخاصة بعد أن تأكد لها أن الطريقة العلمية الجافة لا تليق

بها كمشرفة اجتماعية، إن اقتصارها على ملء الخانات، وكتابة الاسم والسن والحالة الاجتماعية لا يكفى.. ثم لماذا لا تدخل عالم هؤلاء الناس - أمثال سالم - إن عالمهم ثرى ملىء بالتجارب الحية المثيرة، ووجدت نفسها فجأة تعقد مقارنة بين صديقها الطبيب وبين سالم.. الطبيب رجل ظريف.. حلو النكتة.. مسلٍّ، يأخذ كل شيء بسرعة وبساطة يريد أن يملأ فراغه بالحديث معها أو مع الحكيمة أو زائرة من صديقاته. ليس فى حياته عنف وصراع.. لكنها فى الحقيقة فارغة.. وسالم السجين شيء آخر.. رجل قوى حزين يطحنه الصراع، فيضفى عليه تشويقًا وحيوية، وبقدر ما تعاف رقة الطبيب وسطحيته، تقبل على خشونة سالم وحدة انفعالاته.. إنه أتون ملتهب مزمجر..

أما إقبال سالم عليها فقد كان إقبالاً أعمى دون تحفظ أو روية، وجدها الطبيب قد أطالت الجلوس معه ذات يوم، فحنق عليهما، ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يقول لها فى محضره:

- «ألم تنتهى بعد من دراسة حالته؟! يبدو أنها مستعصية.. ولم يدر سالم بماذا يجيب، فصمت، أما ناهد فقد افتر ثغرها عن ابتسامة ساخرة وقالت:

- «عملنا يختلف عن عملك يا دكتور.. أنت جراح، والمبضع فى يمينك تستطيع بسرعة أن تستأصل الداء.. أما المشرفة الاجتماعية فلها دور آخر، قيامها بالعلاج قد يطول..».

وكان الطبيب أكثر وقاحة من بعض المسجونين حين قال:

- «إن هذه الرقة مع الاهتمام البالغ تلحق به أبلغ الضرر . . عندما يعود إلى السجن لن تطالعه غير الوجوه القاسية المغبرة، والمعاملة الجافة، ومن ثم يوقعه التناقض الكبير في مأزق قاتل . . ».

استمع سالم إلى كلام الطبيب، فوقع في نفسه وقعًا سيئًا، واجتاحه غضب لا يقاوم، فلم يملك سوى أن قال :

- «إن الآنسة ناهد لا تتدخل في عملك . . ».

وجمد الطبيب في مكانه للحظات، ثم انفجر :

- «احفظ أدبك يا مسجون . . ».

فانتصب سالم واقفًا وقد تراقص الشر في عينيه وهتف :

- «دكتور . . ».

فاستطرد الدكتور وهو يلوح بيده مهددًا :

- «في استطاعتي أن أعيدك إلى السجن . . ».

فخطت ناهد بينهما وقد سرت إليها عدوى الانفعال، برغم أنها حاولت أن تتماسك، ثم اعتصمت بغير قليل من اللباقة والدهاء وقالت :

- «كفى يا سالم . . وأنت يا دكتور . . لا داعي لكل هذا . . إذا كان هذا بسببي فأنا على استعداد لأن أذهب ثم لا أعود . . ليست هناك مشكلة على الإطلاق . . مجرد سوء فهم لا أكثر . . ».

ثم التفتت إلى سالم، وقالت بلهجة آمرة:

- «اعتذر للدكتور يا سالم..».

ولم يخف على سالم حقيقة الوضع السيئ الذى قاده إليه تهوره واندفاعه، كان يعلم أن تماديه فى الغضب قد يرجعه فى أسرع وقت إلى السجن، ولن يكسب من وراء ذلك إلا الوحدة والظلام والموت البطىء، كما لم يخفَ عليه سرعة بديهة «ناهد» وحسن تصرفها وهى تحاول أن تنقذه من غضب الطبيب، ورفع بصره إلى وجه ناهد، ولأول مرة يرى الذعر باديًا فى عينيها، كانت قلقة على مصيره، وأسعده أن يرى ناهد إلى جواره وتفكر فى إنقاذه من براثن الطبيب، يا له من شعور ممتع رائع، وأشرق وجه سالم بالبشر والسعادة، وكاد ينسى ما طلبته منه، وينسى الوضع الحرج الذى أصبح فيه، لولا أنها عادت تقول:

- «أجل.. لا بد أن تعتذر..».

كانت تخاف عناد سالم وتشبثه برأيه فهى لا تجهل عنفه وحدة طباعه، ولذا وقفت تترقب شفتيه حتى رأته يحنى رأسه، ويتمتم فى صوت خافت:

- «حقك علىّ يا دكتور.. أعتذر.. هات رأسك أقبلها..

وهم أن يفعل ذلك لولا أن الطبيب دفعه فى رفق، وهو يقول:

- «لا داعى لكل هذا.. الأمر بسيط.. وأنا قبلت اعتذارك..».

ثم التفت الطبيب إلى ناهد قائلاً:

- «هيا بنا يا ناهد.. الساعة قد جاوزت الثانية بعد الظهر.. سوف أوصلك بعربتي هيا.. الجو هنا خانق..».

وخرج الطبيب، وتبعته ناهد، لكنها لم تنسَ أن تحيي سالم بنظراتها الحانية وابتسامتها الصافية قبل أن تغيب خارج الباب، وبقي سالم كما هو مستمراً في مكانه، متوقفًا عن التفكير، وسرعان ما دبت الحياة في عقله وجسده.. وأخذ يفكر.. «سوف تجلس إلى جواره في عربته.. وتضحك كالمعتاد عند سمع نكاته.. ليتني بصقت في وجهه.. ولأعد بعد ذلك إلى السجن.. إلى الجحيم.. إني أشعر بلذة مجنونة وأنا أسحق كبرياء مثل هذا الوغد.. يا للوقاحة.. يحسدني على ساعة تقضيها معي، ويضع كلمات نتبادلها في عالمي الضيق، ولا يحاول أن يذكر أنه يستمتع بالحياة هنا وفي الخارج.. وينعم بالعالم الكبير.. هيه.. صدقت جدتي حين كانت تقول: «يحسدون الفجر على ظل الشجر».. لكن يجب ألا أنسى أني مسجون.. وأن أمامي سبع سنوات طوالاً.. إن ناهد أبعد نظراً مني ألف مرة.. ولا تقف سداً أمام حماقتي لكنت الآن في طريقي إلى السجن.. لكن..».

ولم يستطع أن يتابع أفكاره، فقد وفد عليه فرغلي - وما أكثر ما يفد عليه بلا مقدمات - وهو يرقص ويتمايل يمينًا وشمالاً، وفي يمناه وردة يضعها على أنفه ويشمها في شهيق عميق مبالغ فيه ويقول:

- «انظر . . لقد أعطتها لى الست ناهد . . أقسم أنها تحبنى وتريد أن تتزوجنى، يوميًا تعطينى قرشًا . . أما اليوم فقد أعطتنى وردة . . ومع ذلك فقد كنت أفضل القرش على الوردة» . .

وهمس سالم ونظراته تائهة فى آفاق مجهولة :

- «وأين لقيتها؟»

- «إلى جوار عربة الدكتور . فى فناء القصر العينى . . » .

- «وكان الطبيب معها؟» .

- «معها - ككل يوم . . يبدو أن لها نصف العربة . . أقول لك الحقيقة . . هذا الطبيب طماع . . دائمًا فى عربته امرأة . . لا يقنع بواحدة أبدًا . . وإذا غابت إحداهن فهو لا يعدم البديل . . لا غرابة فى ذلك . . دكتور يا حبيبى . . » .

ودخلت الممرضة، ثم علقت أوراق العلاج الخاصة بسالم فى مؤخر سريره، وكان عليه أن يقول لها أى شىء، ومن ثم قال :

- «هل أضاف الطبيب جديدًا للعلاج؟» .

قالت الممرضة :

- «غدًا أشعة بالصبغة . . وعينة دم للبولينا . . وبعض التحاليل النهائية . . » .

- «النهائية؟» .

قالها سالم في شيء من الضيق، لشد ما تزعجه هذه الكلمة، إنه يريد أن يبقى هنا بالمستشفى إلى الأبد، أما أن يعود إلى السجن ولو ليوم واحد فهذا ما يثير الرعب الممزوج بالأسى في قلبه، وأجابت الممرضة:

- «هذا معناه أن موعد العملية قد اقترب..».

وألقى الأسى على وجهه ظلاً كئيبًا، إنه لا يخاف العملية بقدر ما يخاف العودة إلى السجن، حين جاء إلى هنا لم يكن يريد البقاء إلا لشعوره الجديد بالانطلاق والإفلات من عالم الأسوار والقضبان، أما اليوم فقد أصبح يربطه بهذا المكان ذكريات حلوة شجية.. إن الحياة بغير رؤية ناهد شيء شاق عسير.. بل أمر قاتل.. لكن لماذا يبالغ في تفاؤله؟ هل حقيقة تحس ناهد نحوه بعاطفة غير عاطفة الشفقة أم أنه يعيش في وهم زيفه حرمانه، في وهم لا يقوم على أساس سوى بضع كلمات رقيقة مواسية، وجلسات عابرة من يوم لآخر..

وقال فرغلي دون مقدمات:

- «لا أريدك أن تدخل حجرة العمليات..».

والتفت إليه سالم في اهتمام:

- «ماذا تعني يا فرغلي؟».

- «انتهاء شفائك معناه العودة إلى السجن. وإذا رجعت إلى السجن فمن تراه يعطف عليَّ؟ الناس هنا في العنبر يتهموني

باللصوصية، ويسبونى بلا رحمة. . حتى أعقاب السجائر يضنون بها علىّ. . أما أنت فإنسان نبيل، لو كانت هناك عدالة، لذهبوا هم إلى السجن ولأطلق سراحك. . ».

ولم تزده كلمات فرغلى إلا همّاً على هم، فقد أوضحت أمام بصره المصير الذى سوف يئول إليه إذا ما انتهى علاجه، ولابد أن يتم العلاج، هل من المعقول أن يبقى سالم هكذا فى القصر العينى إلى ما شاء الله، لكن لماذا يفكر سالم فى البلاء قبل وقوعه؟! لينس المأساة التى ستترتب على إتمام علاجه، وليعش اللحظة التى هو فيها بكل كيانه، أما التفكير فى الغد على هذه الصورة فهذا عذاب جديد يضاف إلى آلامه الكثيرة. . وأراد سالم أن يخلو إلى نفسه، ومن ثم التفت إلى فرغلى وقال:

- «فرغلى. . تستطيع أن تذهب إلى سريرك. . ولتغلق الباب علىّ. . أريد أن أنام. .

***

فى المساء حوالى الثامنة، وسالم جالس وحده، يقلب صفحات إحدى المجلات، محاولاً أن يصرف نفسه عن التفكير فيما يؤلم، مستحضراً من آن لآخر صورة ناهد، فى هذا الوقت سمع قرعات خفيفة على الباب، ولم يكن فى حاجة لأن يرجح أن القادم فرغلى، فعول على أن يلقنه درسًا قاسيًا هذه المرة. . أنه لا يبتعد عنه أكثر من ساعة، هذا حصار من نوع غريب ممل، ولذا قال فى جفاف:

- «ادخل يا سى فرغلى . . ».

وفتح الباب، ودخلت ناهد . .

- «ناهد . . غير معقول . . ».

فضحكت ضحكة قصيرة دون أن يخالطها شيء من حرج وقالت:

- «ولم؟ شعرت بشيء من الملل الليلة . . فآثرت أن آتى إلى هنا . . ولم أنسَ أن أحمل لك كمية من عصير المانجو المثلج فى «الترموس».

لم يكن سالم ليصدق عينيه وأذنيه، هذا أكثر مما يجب، أهو حلم أم حقيقة . . ناهد تأتى إليه فى المساء . حاملة معها شراب المانجو . . من قال إن الحياة قبيحة؟ أنا؟! إما أنى مجنون أو ظالم أو جاهل لا أرى وجهها الحقيقى . . لأعش أو أمت، ولأبقَ هنا أو أذهب إلى السجن بعد ذلك . . يكفى أن ناهد هنا إلى جوارى للحظات . . ولأبع عمرى بهذه اللحظات.

- «تفضلى يا ست ناهد . . لكم يؤلمنى أن تتحملى المشاق من أجلى . . ».

فقالت فى تبسط وثقة:

- «لا مشقة فى الأمر . . إنى أقضى وقتًا طيبًا . . شعور جميل أن نواسى هؤلاء المتعبين . . هؤلاء ليسوا غرباء عنى . . أبى كبابجى فى العباسية . . فى حى بلدى . . ».

لم يكن سالم على استعداد لأن يفكر فيما قالته، أو يتعمق فيما وراء كلماتها، وإن لفت نظره هذا التعارف السريع الذى لم يكن له ما يبرره. . أبوها كبابجى. . ومن العباسية، هل لهذا الكلام مناسبة حقيقية؟؟ المهم يجب ألا يرهق نفسه بالتفكير فى ذلك. .

- «تفضلى. . اجلسى».

جلست ناهد. . وجلس سالم قبالتها. . كان يعبث بأصابعه ويحرك ساقيه بلا سبب، من فمه تنساب كلمات ترحيب مكررة. . وشعر أن كل أحزانه تنزوى، وأن فى قلبه جوقة تعزف، ولم يغب عنها ما يعانيه من ارتباك، ولهذا تلفتت حولها ثم قالت:

- «أكواب فارغة. .».

وسرعان ما خطا خطوات ودار حول مؤخر السرير وعاد بالكوب، أما هى فقد تناولت «الترموس» وفتحته وأخذت تصب منه عصير المانجو، وخلال ذلك، كانت تأخذ فى الحديث:

- «لم أكن أظن أن ما حدث اليوم مع الطبيب ممكن الوقوع. . كان الرجل سليم النية ولا يقصد السخرية منك. .».

قال سالم:

- «أو تعتقدين ذلك حقاً؟؟».

- «لا أستبعد ذلك. . لكنك كنت قاسيًا معه، ومن ثم كان الاعتذار له أمرًا واجبًا. .».

ورفع إليها سالم نظرات نافذة، وغمغم:

- «اعتذرت له من أجلك فقط.. لو أطال لسانه أكثر من ذلك لقذفت به من الشرفة..».

وضحكت ناهد مرة أخرى وهى تقول:

- «ستكون هذه جريمة قتل حقيقية..».

فشاركها الضحك، ثم تناول منها كوب العصير، وأخذ منه رشفات، بينما كانت هى تقول:

- «الحقيقة أنى لم أفكر فى الأمر إلا من زاوية مصلحتك أنت.. كان عليك أن تعتذر.. وكان علىّ أنا الأخرى.. أن أوافق على توصيلى بعربته.. أشياء كثيرة نفعلها فى بعض الأحيان ونحن أشد ما نكون مقتًا لها، ونفورًا منها..».

شىء من الكدر شاب ملامحه حينما جاء ذكر العربة وتوصيله لها إلى البيت، ووجد نفسه يقول لها دون وجه حق:

- «أعتقد أنه كان يوصلك بالعربة دائمًا..».

أجابته فى هدوء وثقة:

- «ليس دائمًا.. ثم إنى لا أميل إلى رفض مثل هذه الأمور البريئة، أستطيع أن أقبل وأستطيع أن أرفض.. غير أنى لا أحب تعقيد الأمور..».

لم يرتح كثيراً لمثل هذا الكلام، وتمنى فى قرارة نفسه أن تترك هذا الأمر، وتبدأ الحديث فى غيره، ويكفى جداً أنها أتت.. أتت من أجله، ولو استطاع أن يحتفظ بعصير المانجو إلى الأبد كذكرى حلوة لفعل..

ولا يدرى سالم كيف اتجه إليها وركز نظراته فى عينيها وقال:

- «فى الصعيد لا نقر مثل هذه الأوضاع..».

فأجابته فى هدوء:

- «لكننا فى مصر نقبلها ببساطة..».

هل كانت تريد إثارته أكثر؟

أم أنها كانت تقصد أن تجعله أكثر مرونة وليونة إزاء كثير من الأوضاع التى ينقم عليها، وأن يحاول تكييف نفسه مع الجو.. كما يفعل فى السجن وإلا زادت متاعبه وتعقدت مشاكله؟

وهبط عليه فرغلى كالداهية.. إذ دفع الباب ودخل، والابتسامة الواسعة التى ترتسم على فمه بلا معنى.. وكأنها لافتة محل تجارى.. وتمتم وهو يمد يده..

- «مساء الخير يا ست ناهد.. لم أزل أحتفظ بالوردة.. شرفتنا.. هل أحضر كوكا كولا يا سى سالم؟».

وبقدر ما تضايق سالم حتى أوشك أن يقوم وينهال عليه صفعاً وركلاً، ابتسمت ناهد لفرغلى، ثم تناولت الترموس، وكوباً فارغاً وصبت له بعض العصير وهى تقول:

- «فرغلى ابن حلال . .» .

فتناول الكوب وهو يكاد يطير من الفرح، ثم جرعه دفعة واحدة وهو يقول: «ربنا يبل ريقك يا ست ناهد . . ويطيل عمرك ألف سنة . .» ووضع الكوب، وتجشأ، وربت على بطنه، لكن عينيه اصطدمتا بوجه سالم المكفهر، ولم يكد يرى ذلك حتى جاءه صوته الحازم:

- «تستطيع أن تنصرف يا فرغلى . .» .

قالت ناهد متدخلة:

- «ولم؟ دعه ليسلينا . . فرغلى شخصية ظريفة . .» لكن فرغلى كان قد غادر الحجرة مسرعًا . . كان يحب سالم، لكنه فى الوقت نفسه كان يخافه ولا يعصى له أمرًا . . وتنهد سالم فى ارتياح، كان فرغلى فى هذا الوقت كابوسًا ثم انزاح . . ولو بقى سالم هكذا جالسًا معها، وحدهما لكان ذلك غاية ما يتمناه . . أى دخيل فى هذا الوقت عدو مبين ولو كان أخلص خلصائه . . اكتفى بها عن الحياة والناس جميعًا . . هى كل عالمه . . ولكن وأسفاه حتمًا سيعود يومًا ما إلى السجن . . يا للخاطر المعذب . . ويخلو هذا السرير، ويبقى الطبيب وحده . . كل شىء هناك حتى مصائر البشر .

وران الصمت فترة قصيرة، اندفع سالم بعدها يقول كلمات كالصاعقة وإن نطقها فى هدوء وإصرار عجيبين:

- «ناهد..».

- «نعم..».

- «إنى أفكر فى.. فى..».

- «فيم؟».

- «فى الهرب..».

- «الهرب؟».

- «أجل..».

- «هذه مخاطرة لا أقرك عليها.. هذا جنون..».

- «ناهد.. أنا أحبك..».

لم يدرِ سالم كيف نطق بهذه الكلمات، كان العرق يتقاطر على جبينه، وصدره يعلو ويهبط، ونظراته حائرة زائغة، ولم تفعل ناهد سوى أن اختطفت حقيبة اليد، معولة على المسير خارج الحجرة، لكنه أفاق إلى نفسه.. أدرك خطر الكلمات السريعة التى تفوه بها، ومن ثم خطا صوب الباب واعترض طريقها دون أن يتكلم، فقالت فى نبرات متوترة وإن لم تبن عن خوف:

- «أتنوى حبسى هنا؟!».

- «بالطبع لا أعنى ذلك.. لكنى أريد أن تغفرى لى.. كثيراً ما أتورط فى أشياء لا أعنيها تماماً.. أليس من البلاهة أن أفكر فى

الهرب؟! وأين أذهب؟ سيقبض عليّ إن عاجلاً أو آجلاً . . ثم . . هذا الحارس الواقف هناك إن عينه لا تنام . . » .

فقاطعته ناهد قائلة :

- «أعتقد أن بقائى أكثر من ذلك غير مستساغ . . » .

- «أنا أحبك . . هذ هو الشيء الوحيد الذى أصر عليه . . كل ما قلته هوس وجنون إلا حبك . . حقيقة ملأت حياتى وروحى . . قد تحتقرين سجينًا سيئ الأدب مثلى أردت العطف عليه فتخيله حبّاً . . ومع ذلك فأنا مصر . . ليست لى الحرية . . لكنى أستطيع فقط أن أحب . . وأن أكره أيضًا . . هيه . . ماذا قلت؟ لا داعى لأن تخبرينى ، فهذا لن يغير من الواقع فى شىء . . » .

فطأطأت ناهد رأسها ، وتساقطت على خدها دمعتان ، وكاد سالم يجن وهو يرى دموعها ، وسرعان ما فتح لها الباب ، وتنحى جانبًا وهو يقول :

- «أتبكين؟؟ لا تخافى . . تستطيعين أن تخرجى . . لشد ما أكره أن أرغم إنسانًا على فعل شىء . . السجين وحده يعرف القهر . . » .

وكم كانت دهشته حينما وجدها جامدة فى مكانها ، والمنديل الأبيض فى يدها يزحف ليجفف وجنتيها ، ولم ينسَ سالم أن يحضر «الترموس» ويقدمه لها شاكرًا ، لكنها عادت تنظر إليه وتقول :

- «وأنا أيضًا. . أحترمك. . أعنى. .».

- «ماذا تعنين؟ قولى. .».

قالها فى لهفة القلق على مصيره، لكنها عادت تقول:

- «لا شىء. .».

وقع خطوات تقترب، وصدى الخطوات يتضخم فى الليل الساكن، وفى المشى المؤدى إلى العنبر وظل أسود يسبق صاحبه ويمتد على المشى، ويظهر الطبيب النوبتجى الذى جاء لمجرد المرور. . الطبيب نفسه. . وحينما حانت التفاتة منه إلى حجرة السجين. . هتف وهو لا يكاد يصدق عينه:

- «ناهد. . ما الذى أتى بك إلى هنا الآن؟! شىء غريب حقًا».

ولما لم يجبه أحد بقى كما هو مطيلاً النظر إلى الفتاة التى طأطأت رأسها، وإلى الرجل الواقف بالقرب منها ونظراته مسددة إليه. . إلى الطبيب فى عناد وشراسة وتحدٍّ. . ولم يطل به الوقوف أكثر من ذلك، إذ سرعان ما استدار راجعًا، بينما دق سالم الأرض بخطواته العنيدة، ثم أغلق الباب، وعاد. . عاد ليطوقها بذراعيه. . ولينسى عذاب السنين تاركًا الغد والمصير المجهول. . لله. .

[٥]

دلفت ناهد إلى حجرة الطبيب، كانت تمشى على استحياء، ووقفت أمامه كالمتعبة، وحين رآها أشاح بوجهه فى استعلاء،

وانبثق فى ذهن ناهد سؤال: «أى حق للطبيب فى هذا الغضب؟!» فهى ليست خطيبته، ولا تربطها به عاطفة حب، مجرد صلات عابرة ودردشات يقتضيها حق الجوار وطبيعة العمل، بالاختصار لا سلطة له على ميولها الشخصية وتصرفاتها الخاصة.. وعلى الرغم من أنها تدرك ذلك، وتعيه تمامًا إلا أنها ضربت به عرض الحائط، وأتت للطبيب لتعتذر مع أنه لا موجب للاعتذار، لم يكن فى ذهنها وهى تواجهه سوى صورة ذلك السجين المظلوم، إن ترك الموقف على ما هو عليه من التأزم لن يضرها، ولن يصيب الطبيب بخدش، لكنه سوف يأتى بالضرر على السجين.. على الأقل يصدر أمرًا بإعادته إلى السجن، ولن يعدم الطبيب حجة وجيهة لذلك.

لم تكترث ناهد كثيرًا عندما أشاح الطبيب عنها بوجهه، كانت واثقة تمام الثقة من إرضائه وإعادته إلى الصواب، وسحبت أحد المقاعد وجلست وهى تغمغم:

- «يبدو أنك تتصنع الغضب حتى لا توصلنى بالعربة اليوم..».

فواجهها قائلاً:

- «وما الفائدة فى أن أوصلك فى سيارة ثم تعودين إلى هنا فى الترام..».

- «ليس من المعقول أن أفضل الترام على العربة..».

- لكنك مشرفة اجتماعية، وقد تفضلين الاندساس وسط جماهير الشعب . . ».

وضحكت ناهد، ورغم أنها كانت تتصنع المرح إلا أنها كادت تستلقى على ظهرها فى تمثيل متقن، وهب الطبيب واقفًا وهو يقول:

- «خبرينى . . أيهمك أمره لهذا الدرجة؟».

ووضعت ناهد ساقًا على ساق، وكأن الأمر لا يعنيها كثيرًا، وقالت فى هدوء:

- «المسألة لا تخرج عن كونها خدمات إنسانية . . ».

- «لكنى يقلقنى المبالغة فى ذلك . . ».

وببساطة مفحمة قالت:

- «ولماذا تقلق؟».

والآن ماذا يقول لها؟ هل يعترف بغيرته من رجل سجين أعزل . . مجرم . . ؟ وهل معنى ذلك أنه يحبها؟ ومع ذلك فقد استطاع أن يفلت من الحصار الذى أوشكت أن تضربه حوله بقوله:

- «فى الحقيقة . . لابد أن يسود هنا النظام . . علاقات العاملين هنا يجب أن يكون لها حدود. المسجونون يجلبون لنا المتاعب دائمًا . . إنهم يحسبون العطف حبآ . . ثم لا يتورعون عن فعل أى شىء . . واستقرار الأمر فى هذا القسم بالذات مسئول منى

شخصياً . . ولى أن أفرض السياسة التى أراها . . هنا عمل . . عمل فقط . أما الأمور الخارجة عن نطاق العمل فلا يسمح بها أى رجل ذى مسئولية» .

ولم يغب عنها أن ما يتفوه به الطبيب مجرد ثرثرة فارغة ، لو كان قانون العمل هو السائد ، لما قضى الساعات أحيانًا فى أحاديث مسلية وهذر خارج مع بعض الممرضات وغيرهن . . بل لما تدخل فى أمر سالم إلى هذه الدرجة التى تشى بالشك والتخير الجائر . .

ومع ذلك فقد قالت :

- «يا دكتور . . هذا الرجل لا أهمية له بالنسبة لى شخصيّاً . . لكن الأمر ما هو إلا توصية جاءتنى من قريب لى على صلة به . . وأظن يكفى هذا لتتأكد من صدق نواياى . . وأنا لم آت فى المساء أمس إلا لأحمل له رسالة ونقوداً ، وطعامًا خفت أن يتلَف إذا ترك للصباح . . » .

وافتر ثغر الطبيب عن ابتسامة مرحة وقال :

- «إذن من السهل إعادته للسجن . . » .

وقبل أن تعطى ناهد لنفسها فرصة للتفكير هتفت :

- «مستحيل . . » .

قال الطبيب فى دهشة :

- «كيف؟» .

- «معنى هذا عدم الاكتراث بالتوصية».

وغمغم الطبيب فى غير قليل من الشك:

- «التوصية!!!».

وأخذ الطبيب ينقر بقلمه فوق منضدة أمامه، لم يكن فى حاجة لكى يبدى شكه فيما تزعمه «ناهد»، بل إن ما جرى بينهما من حديث لم يصلح ما فسد، بل زاده تعقيدًا، وأدركت ناهد ما يعتمل فى رأس الطبيب، وفى هدوء عجيب قالت:

- «ماذا لو قلت لك إنى أحب هذا الرجل؟».

- «لا شىء إطلاقًا.. سوف أسمح لنفسى فقط بأن أرميك بالجنون..».

- «أما أنا فأختلف معك فى هذا.. لست مجنونة - فيما لو فرض وحدث ذلك - أنت تعرف ألا منطق للحب فى كثير من الأحيان.. قد يرفضه عقلى، فى حين أن قلبى يهفو إليه فى جنون..».

ورمقت ناهد الطبيب من طرف خفى، كانت شفته ترتعش، وشحوب ظاهر يلون بشرة وجهه، ولم يستطع أن يعلق على ما قالته بكلمة واحدة، أما ناهد فقد انفجرت ضاحكة، فالتفت إليها مستغربًا، ولم تدعه للدهشة التى استولت عليه إذ سرعان ما قالت:

- «إنك تهيننى حين تشك أن علاقة ما بينى وبين هذا الرجل..».

وكأنما رفع عن كاهله عبئًا ثقيلاً، ومن ثم قال:

- «الحقيقة أن هذه الرقة والوداعة لا يمكن أن تتفق مع ذلك الشارب الكث والسحنة الشرسة..

البراءة والجريمة لا يمكن أن يلتقيا هذا ما حدثت به نفسى.. لكن تماديك فى العطف عليه هو الذى ورطنى فى سوء الظن..»

واستطرد قائلاً:

- «إن هذه الأيدى الملوثة يجب ألا تمسك.. هذا ما كنت أهدف إليه، أما أنا فليس لى أية مصلحة على الإطلاق..».

فقاطعته قائلة:

- «لكن أؤكد لك أن هذا الرجل برىء..».

فرد متأففًا:

- «كل المسجونين يقولون هذا الكلام.. إن موازينهم المختلة لا تجعلهم يعترفون بأن أى عمل - مهما كانت بشاعته- جريمة..».

وتمتمت ناهد قائلة: «ربما.. كل شىء جائز..».

وأضاف الطبيب فى لهجة تأكيدية:

- «إن هذا الرجل كل شىء ينطق فيه بالإجرام.. نظراته القاتلة.. أصابعه التى تبدو كالمخالب.. جبهته العريضة.. صوته الأجش.. أقسم لك أنى أخافه، ولا أجرؤ على الانفراد معه فى حجرته.. لكأنه ولد وعاش طول حياته فى ممارسة الجريمة وفى

السجون . . وأنا بدورى أحذرك منه . . هذا الوحش الجائع قد يفترسك فى أية لحظة . . يأكلك أتفهمين؟

وعادت على التو إلى ذهنها ذكرى الأمس . . أجل . . حينما أحاطها بذراعيه القويتين، وأراحها إلى صدره، وقبلها فى وجهها . . كان جائعًا حقاً . . لكنه كان رقيقًا عذبًا . . كل شىء فيه كان جميلاً . . أصابعه لم تكن مخالب أبدًا . . نظراته كانت ينابيع رقراقة يتدفق منها الحب . . والحزن . . صوته كان يرتعش فى انفعال رائع . . حقاً لقد كاد يصهرها لكنها كانت ترتاح إليه . . وكانت تؤمن به أعمق الإيمان . . يا له من رجل مقهور، لكنه كان قوياً حتى فى قهره . . وأغمضت ناهد عينيها، وكأنها فى حلم وردى فريد، أنفاسها تلاحقت، وقطرات قليلة من عرق لمعت على جبينها الرائق الناصع . .

وأقبل الطبيب، وأمسك بمعصمها كمن يجس نبضها وقال :

- «ما بك؟ هل أنت متعبة؟».

ففتحت عينيها، ثم أرخت أهدابها مرة ثانية وهى تقول :

- «بعض الشىء . .».

وقدم أحد التومرجية، وقال :

- «حجرة العمليات جاهزة يا دكتور .».

فتحاملت ناهد على نفسها وقالت فى صوت خافت :

- «تستطيع أن تذهب إلى عملك . . إنى فى حالة جيدة . . كن مطمئنًا . .».

كان هواء الشرفة يلامس وجهها، والأفكار المتضاربة تتصارع في رأسها الصغير، وراودها إحساس بعدم المبالاة. الطبيب لا شيء.. لا شيء بالمرة، ويجب ألا تفكر في أمره أو تجامله أكثر من ذلك، ليس من طبيعتها أن تتزلف وتتذلل إلى هذا الحد، أما سالم.. آه سالم.. كيف أحبته؟ لقد التقت برجال كثيرين.. بزملاء في أيام الدراسة، وزملاء في العمل، وجيران، وأقارب، فيهم الوضيع والشريف، والغني والفقير، والتاجر والموظف فلماذا سالم بالذات؟ سالم السجين الذي لم يزل أمامه سبع سنوات طوال.. ومستقبل ضائع.. لكنهم يزعمون أن السجين حسن السير والسلوك يخرج بعد قضاء ثلاثة أرباع المدة.. وسالم ليس ضائعًا تمامًا.. إنه مثقف ذكي.. ويمتلك عشرين فدانًا.. «ما هذا الهراء؟! أوشك أن أخرف».

ومع ذلك، فقد غادرت مقعده، وسارت في خطوات وئيدة إلى.. إلى حجرة سالم وهناك كان يقف في انتظارها.. الحجرة نظيفة لها رائحة طيبة.. السرير منسق نظيف.. والصحف والمجلات موضوعة في نظام أنيق على المنضدة، وصورة نجمة سينمائية على غلاف إحدى المجلات معلقة على الحائط.. وباقة من الزهر إلى جوار الصحف والمجلات.. وسالم لم يزل واقفًا.. شاربه مهذب، بدلته و.. وكل شيء فيه ومن حوله جميل.. وهتف سالم:

- «كنت أنتظرك على أحر من الجمر.. لم أنم طول ليلي..».

فتمتمت وهى تجلس :

- «إنك تفكر كثيرًا . . أكثر من اللازم . . » .

- «دائمًا أحترق . . » .

- «ولم؟» .

- «لأنى أعيش كل شىء بأعصابى . . وأنت؟» .

فقالت ضاحكة :

- «أنا؟ أنا لا أحترق أبدًا . . » .

- «لماذا؟» .

- لأنى أفكر . . ثم أعمل . . ولهذا لا وقت للاحتراق . . »
وهبط فرغلى كالمعتاد :

- «لعنة الله عليك . . ألا تكف عن ملاحقتى؟» .

قالها سالم دون أن يبدو عليه غضب الأمس، مما شجع فرغلى على أن يقول :

- «أنا وراءك دائمًا . . لو عدت إلى السجن لارتكبت جريمة حتى ألحق بك . . العيش معك فى الجحيم جنة . . » .

- وابتسمت ناهد قائلة :

- «ولماذا ترتكب جريمة؟ . . تستطيع أن تنال بغيتك بلا جريمة على الإطلاق . . لتبحث لنفسك فقط عن خصم داهية . . وعليك أن تحسن الاختيار . . » .

لم يفهم فرغلى ما تعنيه تمامًا، ومع ذلك فقد شاركهما الضحك، ولم يكمل ضحكاته، فقد أسرعت ناهد له الضربية اليومية - القرش - وفى نفس الوقت قدم له سالم السيجارة، وحينما خرج، قال سالم:

- «يبدو أن الطبيب قد ضايقك كثيرًا..».

فهزت كتفيها دون مبالاة وقالت:

- «هذا الرجل لن يتركك تعمر هنا طويلاً..».

كانت ناهد تظن أن سالمًا سوف يغتم لدى سماعه هذا الكلام، وكم كانت دهشتها عندما سمعته يقول:

- «هذا لا يهم..».

- «وماذا يهم إذن؟».

- «أن تبقى إلى جوارى دائمًا..».

فقالت فى استغراب:

- «كيف؟».

- «أعرف أن الأسوار ستكون حائلاً بينى وبينك.. لكن تستطيعين أن تكونى معى دائمًا.. بروحك.. لقد فكرت فى كل شىء، أمامى أربع سنوات ونصف فقط لو حسن سيرى وسلوكى.. وبعدها أستطيع أن أخرج من السجن.. وأستطيع عقب ذلك أن أبنى بيتًا فى القاهرة من ثلاثة أدوار.. وأفتتح محلاً للبقالة.. ثم.. ماذا أقول؟ ثم نتزوج..».

وسادت فترة صمت . .

وهمست : «أنت واسع الآمال . . » .

- «لكنى أفكر فى كل شىء . . بصراحة . . وبسرعة . . ثم إنى أحترق لأنى جاد . . والمسألة بسيطة لو اتخذتها مأخذ الجد . . هيه . . ماذا تقولين فى ذلك؟» .

وابتسمت ناهد :

- «هذا شىء سابق لأوانه . . ثم أنه يحتاج إلى تفكير . . » .

وقطع عليهما الحديث نقرات على الباب ، ودخلت إحدى الممرضات ، وأخبرت ناهد أن الطبيب فى انتظارها بعربته ، ويطلب منها أن تسرع فى النزول ، وقالت ناهد :

- «لكنه فى حجرة العمليات . . » .

- «زميله قام بالعمل . . » .

ووقفت ناهد ، بينما ارتسم الحنق فى عينى سالم ، وقال وهو يصر على أسنانه ، وشعور بالخيبة والحسر يخالط نبراته :

- «أو تذهبين معه؟» .

فلم تجب عن تساؤله ، وإنما اتجهت صوب الممرضة وقالت :

- «حسنًا . . قولى للطبيب إنى أشكره . . يستطيع أن ينصرف هو ، أما أنا فسأبقى هنا بعض الوقت . . » .

حينما خرجت الممرضة وأغلق الباب ، همست ناهد :

- «هل هذا يرضيك؟».

فابتسم، والدنيا لا تكاد تسع فرحته، ثم أمسك يدها بين كفيه، وضغط فى حنان قائلاً:

- «ناهد يا حبيبتى.. أنت حياتى..».

[٦]

كغزال رشيق كانت ناهد تنقل خطاها، داخل القصر العينى الجديد، وسمعت وهى فى الطريق أن طلبة كلية الطب قاموا بمظاهرة صاخبة ضد رئيس الديوان الملكى الجديد، ومع ذلك فإن الخبر لم يثر لديها اهتمامًا يذكر، ربما لكثرة المظاهرات التى تشتعل من آن لآخر فى كل مكان، أو لعل ذهنها لم يكن فى حاجة إلى جديد من الأمور؛ إذ إنه مشحون بأحداث كثيرة تخصها، كانت تفكر فى سالم.. أية لذة عارمة تستولى على كل مشاعرها كلما تذكرته!! واطمأنت على رطل الكباب الذى أحضرته معها.. ثم أسرعت فى مشيتها.. سوف تذهب مباشرة إلى سالم، ولو وقف الطبيب فى طريقها فستدفعه بعيدًا وتمضى، وستقول له بملء فمها.. «أنا حرة..» وستسخر من حقده الأسود، ومن غيرة الأطفال التى تبدو فى تصرفاته دون هدف معقول أو غاية نبيلة.. وعندما تلتقى بسالم سوف تعلن له موافقتها على مشروعه.. البيت.. ومحل البقالة، وسوف تنتظره حتى ينفض عن كاهله أعباء السنين السجينة..

لكنها وجدت بفناء القصر العينى حركة غير عادية.. بعض رجال الشرطة يروحون ويجيئون..

ورذاذ كلام يتطاير من أفواه بعض المتجمهرين «. . قتلوه يا ولداه. . رجل والله زين. . لا به ولا عليه. . قضاه يا روح أمه. . من يعلم المخبى. . ».

ولم تشغل ذهنها بما يتناثر من أفواه الناس. . كل يوم موتى فى القصر العينى، ودائمًا يحمل إليه رجال الإسعاف ضحايا المعارك والحوادث، أصبح الأمر مألوفًا لديها. . إن سالم يملأ ذهنها. . سالم وحده.

وحينما بلغت القسم وجدت فرغلى يقف ببابه. . كان المسكين يقف مذهولاً. . عيناه حمراوان كالدم. . ثيابه ممزقة، وفمه نصف مفتوح وكأنه قد أطلق منذ حين صرخة استغاثة.

وحينما وقع بصر فرغلى عليها انفجر باكيًا، وأخذ ينشج نشيجًا حارقًا ويقول من بين دموعه:

- خلاص. . قتلوه يا ست ناهد. . قتلوا سالم. . ».

وتجمدت ناهد للحظات، أفقدتها المفاجأة توازنها، تسمرت كتمثال من الفزع، وهتفت بكلمات تخرج بصعوبة:

- «قتلوا سالم؟».

- «أجل. . قتلوه. . جاءوا من الصعيد فى الظلام. . قتلوه ليأخذوا بثأرهم. . ».

سقطت الحقيبة من يدها، وانفرطت ربطة الطعام إلى جوار الحقيبة، ووضعت ناهد يديها فوق عينيها، وصرخت. . ثم جرت. .

جرت صوب حجرة سالم . . عدد من رجال الشرطة . . الحارس يقف كـالأمس . . الطبيب يوقع على بعض الأوراق فى فتـور . . لكنهـا لم تكد تلمح شيئًا من كل ذلك . . ودخلت الحجرة . . كـانت فارغة . . سالم ليس هناك . . باقة الزهر . . القلة . . الصحف والمجلات وصورة فتاة الغلاف . . والسرير النظيف عليه بقع وخيوط من دماء . .

وصرخت :

- «سالم» . .

وأمسكت بها أيد كثيرة ، حاولت أن تجرى بلا هدف . . أوقفوها . . كلمات بلا معنى تطن من حولها : «لقد قبضنا على المجرمين . . سوف تأخذ العدالة مجراها . . » وهى فى واد آخر ، ورجل بالقرب منها يقول : «هل هذه زوجته؟» وإجابات متناقضة «نعم . . لا . . نعم . . لا» ، والطبيب يقف مذهولاً يرى ناهد كـالمجنونة ، وهى لا تراه . . لا ترى أحدًا سوى سالم . . سالم السجين الذى آمنت به . . وعالم من ضباب وعذاب وذكريات متداخلة تصرخ بالألم . . وسالم قتلوه . . وقتلوا معه أسطورة حب ذهبية . . لكن المظاهرات تضج فى الشارع هاتفة بسقوط رئيس الديوان . . والتحقيق يدور . . وأقوال المتهمين تدون . . وجاء الدور على ناهد لتدلى بأقوالها . . ثم بطل الضجيج . . وصمت كالموت أطبق على قلب ناهد . .

تمت

***

واحد.. طنطا

ميدان المحطة يضج بالحركة، ويزدحم بالناس والعربات والباعة، وفى ركن قصى منه، وقفت عربة الأجرة التى يمتلكها الأسطى «دمرداش»، وبداخل العربة كان يجلس ستة ركاب فقط بعضهم يتصفح جريدة، والآخر يسكت طفله، والجو حار خانق، والعرق يسيل على الوجوه، ويبلل الملابس، وصرخت امرأة فى المقعد الخلفى فى غير قليل من الضيق:

- «ماذا تنتظر يا أسطى؟ من ساعة ونحن هنا.. وراءنا مشاغل يا أخى..».

فانحنى دمرداش السواق بعوده الضخم ووجهه الأسمر المستطيل، ونظر عبر زجاج السيارة النصف مغلقة، وقال:

- «حاضر يا أفندم.. دقيقة واحدة.. الباقى راكب واحد فقط.. ربنا يرزقنا..».

وغمغمت المرأة:

- «تحرك يا أخى.. ربما تجد واحداً فى الطريق».

وكظم دمرداش غيظه، أينفجر فى المرأة؟ يبدو أنها لا تقتنع بمنطق، ليس فى ذهنها سوى أن تسير العربة، إما أن تسير بستة

ركاب أو أقل فهذا لا يهمها، لكن دمرداش يهمه الأمر حسنًا . . إن نقص راكب معناه خسارة خمسة وعشرين قرشًا . . وهذا مبلغ كبير . . العربة تستهلك بنزين كذا . . وتحتاج لتصليحات كذا . . وجراج كذا . . وقطع غيار . . و . . . و إلخ . . . والأولاد كثيرون، والمسئولية كبيرة، ولم يحاول أن يرد دمرداش عليها، بل عاد ينظر إلى ركاب العربة نظرة فيها كثير من الرقة المفتعلة، كانوا جميعًا من «الأفندية» من الموظفين المحترمين، ملابسهم تدل عليهم، أنواع السجائر التى يدخنونها، الشكل العام، حتى المرأة التى تجلس فى المقعد الخلفى هى وزميلتها لا تختلفان عن باقى الركاب من حيث المركز والاحترام ومظاهر النعمة . . وهمس دمرداش :

- «لا مؤاخذة يا حضرات . . لا تقلقوا .. حالاً يكمل العدد ونتوكل على الله . . » .

ثم فرك دمرداش يديه، وتلفت يمنة ويسرة، وامتد بصره إلى الميدان الكبير حتى اصطدم بتمثال رمسيس، الناس كثيرون، والعربات مكتظة بهم، وهو فى حاجة إلى واحد . . راكب واحد فقط أليس فى هؤلاء جميعًا من يأتى إليه، ويدع القافلة تسير فى الطريق إلى طنطا، حتى لا يتعطل الركب، ولا يقلق الوكاب؟

وخطا خطوات بعيدًا عن العربة، وواجه مجموعة من السائرين :

- «طنطا يا أفندى . . واحد طنطا» .

وقالت امرأة مفرطة السمنة، ومعها أولادها الثلاثة :

- «مسافر طنطا؟».

- «تفضلى يا ست . . لكن عشرة قروش على طفل . .» .

فقالت المرأة وهى تتجه نحو محطة القطار :

- «لا . . القطار أرخص وأحسن . .» .

قال دمرداش وهو يلوح بيده فى حنق :

- «مع السلامة . . اركبى قطار بضاعة . .» .

ردت عليه المرأة وهى تسرع الخطا نحو محطة القطار :

- «احفظ أدبك . عمى فى عينك . .» .

وهمَّ دمرداش أن يواصل سبابه وسخريته، لكن رجلاً هتف به من الخلف : «على طنطا يا أسطى؟» .

ونظر إليه الدمرداش، كان الرجل قبيحًا، كث اللحية، يلبس جلبابًا باليًا من الزفير لا يكاد يتبين لونه لقذارته، وفى قدميه حذاء كالح مرقع، ومن آن لآخر يرفع يده إلى فمه، ويقضم لقمة من الخبز ثم يتبعها بقطعة من الطعمية، فلم يرتح دمرداش لمنظره، جلبابه . . حذاؤه . . طاقيته المتآكلة، الرغيف الذى بيده، والطعمية الموضوعة فى ورقة مزيتة . . كل شىء فيه يثير الشفقة ويبعث على التقزز، وفكر دمرداش، هل يقبل الركاب المتأنقون النظفاء ذوو المراكز أن يركب معهم مثل هذا الرجل، ويلتصق جلبابه بأرديتهم النظيفة الثمينة؟

قال دمرداش وهو يسلقه بنظراته الحانقة :

- «على طنطا . . أجل . . لكن ماذا تريد . . » .

- «نبقى خالصين . . أنا ذاهب للسيد البدوى . . » .

فقال دمرداش وهو يدفعه بعيدًا :

- «امشِ من هنا يا بهيم . . » .

- «بهيم؟ عيب يا رجل . . من نصف ساعة وأنت تقول واحد طنطا . . واحد طنطا . . أنا واحد . . ومسافر طنطا . . يا ترى أنا حيوان ولا بنى آدم . . » .

فلم يكلف دمرداش نفسه مئونة الرد عليه ومناقشته ، كان فى نظره أقل من أن يكترث له ، أو يرد عليه ، ليس من المعقول أن يدخل العربة مضحيًا بمشاعر ستة ركاب آخرين من ذوى اليسار . . وعاد دمرداش للصياح مرة أخرى :

- «واحد طنطا . . واحد طنطا . . » .

وأمسك الرجل الفلاح يد دمرداش فى سماحة ورقة وقال :

- «لماذا تتعب نفسك؟ ألست أنا واحدًا؟! تعالَ وتوكل على الله . . » .

فانتزع دمرداش يده منه فى غلظة ، وهدر :

- «إذا لم تختفِ من أمامى فسأكنس بك الشارع . . » .

- «طيب.. طيب.. لا تغضب.. المواصلات كثيرة.. والعربات على قفا من يـ...».

لكن دمرداش طوح به بعيداً وهو يزفر من الغيظ.. وعاد ليرقب المارة فى الميدان الكبير، مركزاً اهتمامه على الأفندية حاملى الحقائب، وعلى المتجهين صوب المحطة، أما الفلاح فقد استمر فى تناوله الخبز والطعمية فى لذة ونهم، ووقف إلى جوار العربة فى هدوء عجيب، وإن كان فى داخله شىء من التمرد الممزوج بالألم.. كان يتساءل بينه وبين نفسه: ترى لماذا لا يوافق على ضمه إلى الراكبين؟! أليس إنساناً مثلهم؟! هل الأفندية وحدهم هم المصرح لهم بركوب العربات؟! أما الناس من أمثاله فلهم الدرجة الثالثة فى القطار؟ فعلاً القطار متسامح جداً.. إنه لا يرفض أحداً.. يقبل الأطفال والنساء، والفلاحين والعمال والعساكر أمثال ابنه «عباس» المجند فى الجيش.. لو كان سائق العربة يفهم لما أضاع على نفسه هذا الوقت كله فى انتظار الراكب الوحيد الذى يريده.. لكن ماذا يقول؟ عقول، الأمر لله.. لينتظر هنا إلى جوار العربة قليلاً حتى ينتهى من تناوله الطعام.. وبعدها يفرجها ربنا.. وإذا لم يوافق دمرداش على ضمه إلى ركاب العربة، ففى القطار الذى سيأتى بعد ساعة.. متسع للجميع..».

- «طنطا.. واحد.. طنطا واحد..».

وكف دمرداش عن النداءات المكررة. حينما سمع صرير باب العربة وهو يفتح وتنزل منه المرأة المتعجلة، وهى تقول:

- «تحرم عليّ العربة ما أنا راكبة فيها . . وقت الناس له ثمن يا أخى هات يا أخى أى أحد يركب معنا . . ولو حتى حمار . . أعوذ بالله».

وابتسم الفلاح الواقف إلى جوار العربة، ثم اقترب من بائع عرقسوس، وطلب منه كوبًا، بمليمين . . وشرب العرقسوس وتجشأ، وهتف فى سعادة: «الحمد لله . . الحمد لله على عطاه ورضاه . .».

ثم عاد إلى دمرداش الغاضب، والمرأة كانت قد نزلت:

- «هيه . . ماذا قلت يا أسطى؟».

فاعتصم دمرداش بشىء من الصبر والهدوء وغمغم فى يأس:

- «خلاص يا ست . . سنتحرك . . اركبى . .».

ثم التفت إلى الفلاح قائلاً:

- «تفضل يا سيدى . . تفضل . . أعوذ بالله . . ثور الله فى برسيمه . .».

وتفاءل الركاب، لم يكونوا على قدر كبير من الحنق، كانوا يريدون أن تتحرك العربة فقط . . وبأى ثمن . . وشعر دمرداش . . بتغاضيهم من ركوب الفلاح فتسلل الرضا إلى نفسه هو الآخر، ثم أمسك بالفلاح من كتفه وأخذ يدفعه إلى داخل العربة، غير أن الفلاح توقف فجأة ثم أخرج نصفه الأمامى من العربة، وعاد إلى الوقوف على الرصيف، وقال:

- «اسمع يا أسطى . . الشرط نور . . كم الأجرة؟» .

وغمغم دمرداش فى ضيق ظاهر :

- «الأجرة؟ الله يخرب بيتك . . ألا تعرف الأجرة من هنا لطنطا : حلوف صحيح . . خمسة وعشرون قرشًا يا روحى . . ربع جنيه» . .

قال الفلاح وهو يتراجع وينفض يديه :

- «لا يا عم . . يفتح الله . . لا أدفع أكثر من أجرة القطار . . ما معى إلا اثنان وعشرون قرشًا فقط لا غير . . » .

وهتف دمرداش والشرر يتطاير من عينيه :

- «يا ابن الـ . . إذا لم تترك هذا المكان فسوف أسحقك تحت العجلات . . » .

وفى خطوات دانية تراجع الفلاح بعيدًا عن وجهه . . وعن العربة ، وعن الركاب الذين أخذوا يضحكون ويصخبون ، أما المرأة الجالسة فى المقعد الخلفى . . وكانت قد عادت إلى مجلسها الأول -فقد نزلت مرة أخرى ، حاملة أمتعتها دون كلمة واحدة ، كان غيظها قد فاض بها لدرجة لم تجد معها أى كلام من الممكن أن ينفث عما يعتمل فى صدرها ، واتجهت من فورها إلى محطة السكة الحديد ، ودمرداش يرمقها فى حسرة وأسف ، ومع ذلك أفلتت منه بضع كلمات :

- «مع السلامة.. سألناك الفاتحة.. لا تنسى الخطابات.. لو كان معى قلة لكسرتها وراءك..».

ولم ترد المرأة.. سارت فى طريقها وخطواتها متعجلة متوترة.. ولم تكد تغيب عن الأنظار، وتندس وسط الزحام المتكدس فى فناء المحطة حتى سمع الركاب وسمع دمرداش صوتًا يقول:

- «السلام عليكم..».

كان رجلاً يلبس عباءة وجبة وقفطانًا، وفى يده مسبحة، واستطرد:

- «طنطا إن شاء الله».

وفتح دمرداش الباب فى عصبية قائلاً:

- «اتفضل..».

- «على بركة الله.. متى تتوكل على الله؟؟».

- «حالاً..».

ثم التفت إلى الميدان الفسيح، وشلالات البشر المتدفقة فيه وصرخ:

- «طنطا.. طنطا واحد..».

وعاد الرجل الفلاح إلى العربة، وأخذ يربت على كتف دمرداش:

- «خذنى معك.. الثلاثة قروش صدقة عن أولادك..».

وقبل أن يركله دمرداش أو يصفعه، قال الرجل المعمم:

- «الله.. لماذا تركته يا أسطى؟! من أجل ثلاثة قروش.. اركب يا ولد جرى إية.. كل واحد من الأفندية.. وأنا. ندفع تعريفة.. ولا داعى للتعطيل.. اركب يا ولد.».

والتفت الفلاح إلى دمرداش:

- «هل أركب يا أسطى؟».

فقال الرجل المعمم:

- «قلت لك اركب.. سوف أدفع لك الفرق كله بعد استئذان حضرات الأفندية.. توكل على الله يا أسطى..».

***

وركب الرجل، وجلس دمرداش خلف عجلة القيادة، وتنهد فى ارتياح، وعندما تحركت العربة فى طريقها إلى طنطا، تنهد الركاب أيضًا فى ارتياح، وانبعث صوت الشيخ:

- «الفاتحة يا رجال أن يوصلنا الله بالسلامة.. الفاتحة..».

تمت

***

الشيخ .. صابر

كان «الشيخ صابر» لغزًا محيرًا، يحيط به كثير من الغموض، ويظله وجه من الأسرار التي تثير التساؤل، ولم يكن الشيخ صابر كهلاً ذا لحية كثة، ولم يكن يلبس ثوبًا مرقعًا بألوان الطيف، بل كان مجرد طفل صغير لا يتجاوز التاسعة من عمره، ذي بشرة سوداء كليل غاب قمره، وذي بلاهة واضحة ملفتة للأنظار، وكان صامتًا لا يتكلم، يمضي في طريقه لا يعير أحدًا التفاتًا، وكان أمر الناس جميعهم لا يعنيه في كثير أو قليل..

أجل كان لغزًا محيرًا بالنسبة لأقرانه من الأطفال الذين يذهبون صباح كل يوم إلى مكتب «الشيخ درويش» لتحفيظ القرآن، وفي هذا المكتب حيث يجتمع الأطفال، كان يدور ذكر الشيخ صابر على ألسنتهم، ترى ابن من يكون وأين يسكن؟ ومن أي حي من أحياء الجيزة يأتي؟ وهل صحيح ما اشتهر عنه من كرامات وخوارق؟

وفي المكتب، وفي غفلة من فقيهه كان الأطفال يتهامسون ذات يوم، وقال طفل شرس يدعى «مكاوي»:

- «تصوروا يا أولاد أن الشيخ صابر يمشي فوق سطح الماء».

فرد طفل آخر:

- «أيمشي على سطح الماء ولا يغرق في النهر؟ كيف؟».

فقال مكاوى وعيناه تبرقان بريقًا شيطانياً عنيفًا :

- «هذا ما يحيرنى . . إنه يأتى من وراء النهر . . من مكان ما غربى الجيزة . . فإذا ما رأى طريقًا مغلقًا عند مرور القطار على الكوبرى . . سرعان ما ينحرف يمينًا ، ويدع الناس متكدسين فى انتظار فتح الإشارة . ثم يثب إلى الماء فى خفة ، ويخطو فوق سطح الماء ، وكأنه يمشى على بساط من الحرير . . » .

- «يا قوة الله . . » .

وعاد مكاوى إلى الحديث مرة أخرى :

- «سألت جدتى ، فقالت : إن صابر لا بد من أهل الخطوة . . من أولياء الله الصالحين» . .

وشرد مكاوى بضع لحظات ، كان يحملق فى لا شىء ، وبساط من الحرير يمتد فى خياله ، وصورة الشيخ صابر نظيفًا . . أبيض البشرة يلبس حذاء لامعًا . . ثم عاد مكاوى بذهنه إلى مجاذيب الحسين والسيدة زينب . . هؤلاء الذين يلبسون العمائم الخضراء . . والأحزمة الحمراء . . ويترنمون بأغنيات غريبة . . ويمدحون النبى . لحاهم البيضاء تقطر جاذبية وحنانًا وحبًا . . والناس - بعض الناس - يتسابقون إلى تقبيل أيديهم . إن هؤلاء الدراويش أو الأولياء يشبهون الشيخ صابر بعض الشبه . . إنهم مثله بلهاء . . صامتون . . يتطوحون يمنة ويسرة ، ومن أولياء الله . . ولا بد أنهم أيضًا يسيرون فوق سطح الماء وكأنهم يسيرون على بساط حريرى ناعم . .

ولم يفق مكاوى من أحلامه . . بل أخذ يتذكر تلك الرؤى التى كان يراها فى منامه . . كان يرى نفسه سائرًا فوق سطح الماء، والرفاق على الشاطئ ينظرون إليه مذهولين . . لكنه فى تلك الرؤى كان قبل أن يصل إلى الشاطئ الآخر يحس أن ساقيه تغوصان . . وأنه يوشك أن يغرق . . فيصرخ . ويستغيث . . والرفاق على الشاطئ يقهقهون ساخرين شامتين . . فيظل يصرخ ويصرخ طالبًا النجدة .

ولا ينقذه من أحلامه المرعبة سوى يد جدته الحانية وهى تهزه فى سريره «مالك يا حبيبى؟ . . لماذا تصرخ يا مكاوى؟ بسم الله الرحمن الرحيم . . رقيتك ممن رأوك ولم يصلوا على الحبيب النبى» . ويفيق مكاوى من أحلامه، والدموع تترقرق فى عينيه، وصورة الشيخ صابر الوافد تتراءى له متوجة بالسحاب الأبيض . والورود وأجنحة ملائكة ترفرف من حوله، وعلامة استفهام كبيرة تحتل عقله الصغير وتحوله إلى حجرة متقدة حانقة من التساؤل المحير . أكان عقله الصغير يبحث عن الحقيقة؟ أيؤمن بما يسمع أم لا يؤمن؟ لقد حاول مكاوى ذات مرة أن يقلد الشيخ صابر، فجرى صوب الشاطئ، ثم . . ثم خطا إلى ماء الترعة الكبيرة . . كان يريد أن يجرب بنفسه هل يمكنه أن يسير فوق سطح الماء كما يفعل صابر؟

ودق قلبه فى عنف عندما لامست قدمه الماء، كان يخاف البحر . . فقد ارتبط فى ذهنه بالجنيات الساحرات اللاتى يجررن الضحايا إلى الأعماق السوداء المجهولة حيث الظلام وعوالم

الجن . . تلك العوالم التى لا يعرف عنها أحد شيئًا مفصلاً مقنعًا . . وكم كانت خيبة مكاوى كبيرة عندما غاصت ساقاه . . وبلغت الطين اللزج البارد . . وأوشك أن يجرفه التيار فيقضى غريقًا . . لولا صرخات المارة التى أخذت تنصب فى أذنيه محذرة . . ولولا الأيدى التى تسابقت لإنقاذه من موت محقق . . لماذا؟ لماذا فشل هو بينما ينجح صابر؟ وبماذا يتميز صابر عنه؟ إن مكاوى يحفظ بعض سور القرآن القصير، وصابر لم يذهب إلى «المكتب» طول حياته . . ولم يحفظ كلمة واحدة من كلام الله، وصابر شارد . . ذاهل عن الدنيا وما فيها . . يلبس ثوبًا ممزقًا متسخًا . . ويمشى كالعبيط حافى القدمين، أما مكاوى . . فعاقل . . من بعيد . . والنهر والشبح الأسود يخطو فوق سطح الماء . . تملأ خياله، وتزيد من حيرته وآلامه .

والتفت مكاوى إلى أصدقائه فى المكتب وقال :

- «يا أولاد . . هل فيكم أحد رأى صابر وهو يمشى فوق الماء . . » .

فردوا جميعًا :

- «كل الناس رأوه . . . » .

فضرب مكاوى كفاً بكف وقال :

- «وهذا ما يحيرنى . . إن جدتى هى الأخرى حدثتنى عن امرأة من أولياء الله الصالحين كانت منقطعة لعبادة الله فى الخلاء . .

وكانت إذا أرادت أن تعبر النهر، ما عليها إلا أن تبسط منديلاً فوق الماء ثم تجلس عليه وتتمتم: «قدوس.. قدوس.. قدوس» وسرعان ما تبلغ الشاطئ الآخر..»

ورد عليه طفل خبيث:

- «جدتك كذابة..».

فلم يجب عليه مكاوى بغير صفعة قوية فوق وجهه، فأثار الضجيج والهرج، مما لفت نظر فقيه المكتب الذى غادر مكانه وعصاه فى يمناه كى يعطيهم درسًا فى الأدب..

وما إن انتهى اليوم الدراسى حتى هرع الأطفال فرحين.. وتنفس مكاوى الهواء النقى فى تلذذ، وما زالت صورة صابر عالقة بذهنه، ترى لماذا ثار عند اتهام جدته بالكذب؟ إن ما تقوله لا يختلف كثيرًا عما يقوله الأطفال عن صابر، فلماذا يصدق جدته وتساوره الشكوك فى كرامات صابر، والأمر متشابه؟ واعترف مكاوى بينه وبين نفسه بأن حديث الأطفال وحديث جدته كلاهم فى حاجة إلى تحقيق.. إلى برهان أكيد ساطع يشرق على المعميات التى تراوده، وتكشف عن غموضها، إنه يشعر بالحاجة إلى أن يلمس الحقائق بيديه أو يراها بعينيه رأى العيان، وبهذا يكون مكاوى الصغير نموذجًا لعصره.. للأفكار الجديدة التى تغزو مجتمعه.. كان مكاوى يشعر بذلك، لكنه لم يكن قادرًا على التفلسف أو مناقشة الغيبيات كما يفعل الكبار، لكنه فى بساطة

عجيبة أراد أن يرى الكرامة أو الخارقة المعجزة بنفسه لا من خلال إشاعات الأطفال ولا حتى من خلال أساطير جدته . . لا شيء يحل المشكلة سوى أن يرى صابر النحيف الأسمر ذا القدمين الحافيتين، يسير فوق سطح الماء، وكأنه يدرج على بساط من حرير .

وأفاق مكاوى من أحلامه المتمردة على صفير عال مزعج . . ورمى ببصره إلى بعيد . . كان القطار يقترب بوجهه الأسود المخيف الخانق، ينفث دخانه القاتم نحو السماء، وبدا له أن القطار يستطيع أن يسحق كل شيء حتى فقيه المكتب وحتى صابر لو وقف فى طريقه لمزقته العجلات شر تمزق. فالقطار غول أحمق لا يرحم ولا يعترف بكرامات الأولياء . . ربما هذا هوالسبب فى أن صابر يلجأ إلى النهر ويسير فوق سطحه، متجنبًا السير فوق القضبان والتعرض للعجلات الحديدية القاسية التى لا ترحم . . وتجمهر الناس فى انتظار فتح الإشارة بعد مرور القطار . .

ووقف مكاوى يتفحصهم . .

لماذا لا يعبرون النهر مثلما يفعل الشيخ صابر؟

لكنه توقف عن مناقشة هذا الأمر . . إذ هالته مفاجأة كبرى!

إن الشيخ صابر هو الآخر يقف بعوده الأسمر النحيل مع الناس ينتظر فتح الإشارة . . هل هذا معقول؟

لماذا لا يعبر النهر بطريقته المعروفة؟

«هذا الأبله يريد أن يحرمنى من المتعة التى أترقبها منذ زمن بعيد» . . وتخيل مكاوى الشيخ صابر وهو يسير فى تؤدة وصمت وعدم اكتراث فوق سطح الماء. وعشرات العيون ترمقه من خلف الحواجز القائمة التى تسد الطريق. . لقد حانت التجربة غير أن الشيخ صابر لم يتحرك. . بل ظل واقفًا ضمن الناس وكأنه واحد منهم لا يتميز عنهم بخوارق أو كرامات. . أهو تواضع؟ يا للخبث والمعاندة!

وتلفت مكاوى حوله فرأى أصدقاءه الأطفال يقفون مع الناس، وهتف مكاوى وفى عينيه بريق عجيب:

- يا أولاد. . ها هو صابر. .

وجرى الجميع صوب صابر، وتزاحمت الكلمات تنصب فى أذنى الشيخ صابر وتسابقت الأيدى تعابثه أو تداعبه، وبعضهم أخذ يطلب منه فى إلحاح أن يدعو له بالنجاح، إن كل من دعا له الشيخ صابر لابد أن ينجح وأن يفلت من غضب الفقيه، ومن نقمة الله أبدًا. . وصاح طفل:

- دعوه يا أولاد. . إن من يؤذى الشيخ صابر يدخل النار. .

وصرخ فيهم مكاوى وهو محتقن الوجه:

- هس إنت وهو. .

والتفت الأطفال نحوه، فرأوه يشق طريقه إلى صابر بذراعيه الصغيرتين فى قوة، وما إن بلغ صابر، حتى مد يده وقبض على

زنده العارى الأسمر بأصابع مرتجلة، وحاول أن يجذبه إلى بعيد، لكن صابر لم يحاول أن يلتفت إليه، وبدا عليه أنه لا يكترث به، واكتفى بأن انتزع زنده من يدى مكاوى وابتعد قليلاً . . غير أن مكاوى تشبث بزنده وأخذ يجره . . وصابر يقاوم فى ضعف . . ويتهقهر مع جذبات مكاوى العنيدة وقبضته المتشنجة التى تأبى أن تلين . . ومكاوى ممسك بتلابيبه، والإشارة قد بعثت ضوءها الأخضر، ولم يعد يسمع للقطار صفير . . وانفض الناس بعد أن فتحت السدود . . وبقى صابر والأطفال على الشاطئ.

وهمس مكاوى والشحوب يغلف وجهه :

- «انزل يا صابر . . انزل إلى الماء . . نريد أن نرى كيف تسير على سطحه دون أن تغرق . . » .

وحاول أن يدفعه إلى الماء، لكن صابر تقهقر وتشبث بثياب الأطفال الواقفين إلى جواره وصرخ مكاوى :

- «قلت لك انزل وإلا أنزلتك أنا . . » .

كان صابر يتراجع، ومكاوى يدفعه، ولعل صابر شعر بما بدا على مكاوى من إصرار مجنون، فبكى وهطلت دموعه، وند عنه أنين خافت حزين، وانبعثت من عينيه الذاهلتين نداءات الضراعة والتوسل . .

وصرخ مكاوى ثانية :

- «انزل . . لا بد أن أراك . . أراك بنفسى وأنت تسيرعلى الماء» .

وشده الأطفال وهم يرون مكاوى يستجمع كل قواه، ويدفع صابر إلى النهر دفعة شديدة. وفى لحظات كان صابر وسط الماء يصارع التيار بذراعيه الهزيلتين، ويختفى تحت السطح، ثم يطفو من جديد، وأصابعه الرقيقة السوداء، تمتد فى ضراعة، بينما وقف مكاوى كالمسحور على الشاطئ ينظر إلى المأساة التى صنعها مذهولاً، وتمتم وكأنه فى حلم مقبض:

- «ولكنه يغرق.. صابر يغرق.. صابر يموت..».

وأفاق على المأساة، وصدمته كلمة «يموت». وصرخ مكاوى بصوت متحشرج حزين:

- «يا صابر.. قل قدوس.. قدوس.. قدوس. وستصل الشاطئ الآخر بسلام.. هكذا قالت جدتى عن..؟

واختفى صابر، ولم يعد يطفو، وسكن الماء أو كاد، ومزقت السكون أصوات استغاثة، وتجمهر على الشاطئ عدد من الرجال والنساء والأطفال، أما مكاوى ورفاقه فقد لاذوا بالفرار وابتلعتهم الأزقة والحوارى والجموع التى تتدفق من كل ناحية.. وكان مكاوى وهو يجرى تلتقط أذناه كلمة «غريق.. غريق.. يا ضنى أمك يا حبيبى.. العيال الأنجاس أغرقوه..» وظل مكاوى يجرى.. ويجرى منقطع الأنفاس.. حتى بلغ حجر جدته فألقى رأسه فيه.. وانفجر باكيًا بكاء مرًا وهو يتمتم:

- «الشيخ صابر مات . . مات . . يا جدتى . . ولم يستطع أن يبلغ الشاطئ . . ليته قال كلمة قدوس . لكن فمه امتلأ بالماء . وغاص بعيدًا فى أحضان الطين . . مات صابر يا جدتى . . » .

فربتت جدته على رأسه فى دهشة وقالت مواسية :

- «كلنا سنموت يا ولدى» .

- «لكن أنا الذى . . » .

- «أنت ماذا؟» .

وتنهد فى أسى وقال وأمارات الخوف تنعكس على ملامحه .

- «أنا ؟ أنا . لا شىء . . » .

تمت

***

صاحبة البيت

كانت صاحبة البيت الذى أسكن فيه كالديدبان اليقظ، عيناها دائمًا مفتوحتان على كل ما حولها، لا تكاد تفوتها حركة من حركاتى، وكان إحساسى بشدة يقظتها وانتباهها، يثيرنى إلى أبعد الحدود، ويفجر فى قلبى مراحل الحقد والنقمة، لقد خيل إلى أنها تكاد تتنبأ بما يدور فى نفسى، وتعلم سلفًا ما أدبره فى الخفاء . . الحقيقة أن ابنتها «سكينة» كانت رائعة الجمال . . رقيقة عذبة الحديث . . عذبة الطلعة، ابتسامتها الحلوة تذهب عقلى، نظراتها الخاطرة الخجولة تجعلنى أتوه فى عالم غريب . . رائع . . إنها تسكن فى نفس الشقة مع أمها . . وأنا أشغل حجرة واحدة من الشقة . . حجرة فقيرة الأثاث، صغيرة، زوارى فيها قلة؛ لأن أوامرها صريحة لا تقبل النقض، إنها لا تحب أن تفتح باب شقتها لأصدقائى الشباب . . فهم فى رأيها عابثون، الوقت عندهم ليس له قيمة، والتورط فى الخطأ والحماقة طبيعة لصيقة بأخلاقهم . . وكان أبى يحمد لها هذا السلوك، الذى يؤمن أنه لا شك فى مصلحتى، ويخدم مستقبلى أجل خدمة . . ومن ثم قنعت بحظى الضعيف المقهور، واكتفيت بالنظر إليها . . إلى سكينة . . من بعيد . . وكنت وأنا فى حجرتى أميز خطواتها التى تربت على بلاط الصالة فى حنان، وأعيش مع سكينة - برغم ذلك - فى أحلام اليقظة

والنوم . . أحادثها وتحادثنى، وأتجرأ عليها، وأقول كل ما تشتهيه نفسى، وأفعل ما أشاء . . ونضحك ونسير جنبًا إلى جنب فى الحدائق والمتنزهات وأجلس إلى جوارها فى دور السينما . . كل ذلك كان يحدث . . لكنه للأسف كان يحدث فى الخيال ولا ظل له من الحقيقة . . حتى كدت أجن . . غير أننى أحسست فى داخلى أن علاقتى معها تتطور وتنمو . . كيف؟! لا أدرى!!

وفى الأوقات القليلة التى كانت أمها تغادر فيها البيت، كانت سكينة تأوى إلى حجرتها فلا تغادرها، وكنت بدورى - أنا الآخر - آوى إلى سريرى الصغير كالفأر الخائف، وكأن يدى ورجلى مقيدتان بسحر مبهم لا أستطيع منه فكاكًا، الوضع لم يكن يتغير فى حضور الأم أو غيابها، بل إن غيابها كان أقسى على أعصابى ونفسى من حضورها، كانت مأساة الحرمان تتجسم أمام بصرى، ونار التمرد والنقمة تحرق أعصابى . . كلانا حبيس . . والقيود فى قلبى وروحى . . طالما فكرت فى أن أهب من سريرى، وأطبق كتابى ثم أقذف به إلى بعيد وأخطو فى إصرار وثبات، ثم أفتح باب حجرتى، وأذهب إليها . . إلى سكينة . . وأقف إلى جوارها، وأمسك بيدها الصغيرة الحلوة، وأملأ عينى من جمالها وفتنتها الدافئة، وأهمس فى أذنيها بكلمات جميلة عن الحب . . والجمال . . والحياة الكبيرة التى تفتح ذراعيها لنا . طالما فكرت فى كل هذه، لكننى دائمًا لم أكن أخرج عن حيز التفكير المجرد، التفكير الطائش الذى لا يمس أرض الواقع، ولا يبلغ حيز التنفيذ، وأظل

هكذا قلقًا معذبًا حتى تعود أمها . . ويموت كل شىء . . الحماس ينطفئ . . حرارة الحب تتحول إلى خيبة وخنوع ، الأشواق الطائرة تذوب . . ولا شىء . . إلا الكتاب والحرمان والخوف من الجلاد الذى يقيم الحواجز غير المرئية . . الحواجز اللعينة التى لا تلمسها يد ، ولا يمكن تحطيمها . . والحقيقة لم أكن أفكر فى تحطيم هذه الحواجز جدياً . . بل فكرت فى الهروب منها . . قلت لأبى ذات يوم :

- أريد أن أنتقل إلى مسكن آخر . .

فقال فى دهشة :

- كيف؟! يا للفضيحة!! إنك مدين بنجاحك للست أم سكينة . .

فقلت وشعور بالذنب يلاحقنى :

- لا أريد بيتًا فيه بنات . .

- عجبًا!! الست وابنتاها فى غاية الأدب؟!

- لكنى لا أستمتع بحريتى . .

- أية حرية تقصد؟

- أقصد حريتى . . أعنى أنى غير مستريح . .

فارتعشت شفة أبى السفلى وقال :

- هذا بداية الخيبة . . تريد أن تعيش مع الطائشين من الشباب بلا رقيب . . لو تكلمت فى مثل هذا الموضوع مرة ثانية لقطعت رقبتك . . فاهم . . ؟

فلم أجب بغير الدموع الصامتة .

لكن هل كنت حقيقة أستطيع الابتعاد عن جو سكينة رغم اكفهراره وقتامته؟! لو فرض ووافق أبى على هذا المشروع الجنونى لكنت أتعس مخلوق . . إن وجودى إلى جوارها - مجرد وجودى الصامت- يملأ عالمى بمعان كبيرة، يشبع حيزًا ضخمًا من فراغ روحى، ويجعل قطرات من الرضا تنسكب على قلبى الملتهب .

لكن الطبيعة الداخلية- شأنها شأن طبيعة العالم الخارجى- قد تصيبها الهزات والزلازل فتنقلب إلى الضد، وتصدر عنها تصرفات غير متوقعة ، وهذا ما حدث حينما استدعيت أم سكينة من بنها إلى القاهرة لمرض مفاجئ ألم بأخيها فى حى السكاكين فسافرت مسرعة . . لكنها قبل أن تغادر الشقة سمعتها تقول لابنتها فى قوة وشراسة :

- أنا مسافرة اليوم . . لكنى موجودة . . موجودة هنا فى الشقة . . أتفهمين؟

- حاضر يا ماما . .

ثم شعرت بها هى تتجه إلى حجرتى، وتقرع الباب، وتقول فى ثقة مؤكدة :

- أعتقد أنك لن تقدم على أى تصرف يغضبنى أو يغضب أباك . . ثم إنك لست صغيرًا . . لكن تأكد أن أى انحراف معناه . . معناه . . آه . . أنت تعلم . . ولن أزيد على ذلك، سوف أحضر غدًا، وأرى . .

وحينما خرجت أم سكينة تنفست الصعداء، شعرت براحة عجيبة، لكأن كابوسًا ثقيلاً مخيفًا قد انزاح عن كاهلى، وخيل إلىّ أن قلبى يتسع، وأن جسمى الضامر ينمو وينتفش، وأن الدنيا كلها من حولى شهية «رحبة» تمتد آفاقها فى رحابة ويسر وروعة إلى بعيد جداً. . لكنى كنت أرتعش. . جسدى كله يهتز، وقلبى يدق فى عنف. . خيل إلىّ أنى عريس فى ليلة الزفاف، شعور لم أجربه فى حياتى قط. . وعلى الرغم من أنى بقيت بضع ساعات على هذه الصورة، إلا أنى لم أكن أشعر بالوقت. . لقد مر كلحظة خاطفة. . ووجدتنى بعد ذلك أخرج إلى دورة المياة ثم أعود إلى حجرتى دون حاجة إلى ذلك. . ثم أذهب لأشرب من ماء الصنبور رغم أنى لا أشعر بالظمأ. . ثم أعود مرة ثالثة لأغسل يدى، وبعدها أتجه إلى الشارع وأسير فيه لدقائق بلا هدف. . وأخيرًا، وجدتنى أنساق إلى الداخل. . كنت مترددًا لكن شيطانى كان يدفعنى. إن لحظات الضعف والقهر توشك أن تموت فى غيبة الجلاد، وضياع هذه الفرصة معناه خيبة حقيقية وندم ما بعده ندم. . هذا ما بدا لى، وبعد دقيقة واحدة كنت أقرع بابها. . باب سكينة. . وعندما فتح الباب كانت سكينة تبدو شاحبة مرهقة، وكأنها خارجة لتوها من سباق عنيف، لم تفكر فى النظر إلىّ، بل ركزت نظراتها فى الأرض منتظرة، وفى كلمات متلعثمة قلت:

- أتسمحين؟

وانتظرت بقية الحديث دون أن تجيب، فاستطردت قائلاً:

- أريد أن أملأ قلمى من الحبر..

وفى ارتباك وخجل وتعثر تحركت وأحضرت المحبرة، وقدمتها إلىَّ، كانت يدى ترتعش وأنا أرفع غطاء المحبرة، ثم وأنا أغمس القلم فيها، وكان الصمت يغلف المكان، صمت يملؤه الطنين المجهول، والضجة التى تثيرها أعصابى، وعدت إلى حجرتى وكأنى الإسكندر المقدونى.. أى انتصار رائع.. استطعت أن أحققه، لقد تخطيت الحاجز الوهمى وحدثتها وملأت قلم الحبر.. وشملنى بعدها قدر من السكون والهدوء، وخفت حدة الاضطراب والانفعال، وأحسست بعد فترة من التفكير الهادئ أن ما فعلته شىء بسيط.. عادى جداً، لا يزيد عن كونه عبث أطفال.. وبدا لى أن شيئًا أكبر من ذلك يجب أن يحدث.. وجلست أفكر.. إنها ليلة واحدة.. قد لا يجود بها الزمان مرة أخرى، لكن كيف أتصرف؟ لكى يستمر الإنسان فى طريقه يجب أن يغامر.. وأن يتدرب على الصفاقة.. صفاقة الآخرين.. وصفاقته هو.. ووجدتنى أذهب إلى سكينة مرة أخرى، لم يكن فى ذهنى شىء محدد لأفعله، أو كلمات بعينها لأقولها، وحينما واجهتها وجدتنى أهمس فى خجل:

- «ألا تريدين شيئًا؟».

فنظرت إلىَّ فى قليل من الدهشة وسرعان ما أغضت ببصرها وقالت فى إيجاز:

- «متشكرة . . » .

ولا أدرى لماذا أردفت قائلاً :

- «لسوف أبيت الليلة فى الخارج عند بعض أصدقائى . . » .

وكأنما صفعتها كلماتى التى لم تكن تتوقعها ، وهمت أن تقول شيئًا ولكنها أجفلت ولاذت بالصمت بينما قلت :

- ما رأيك؟

فأخذت تفرك يديها ، وبعد فترة صمت لا أدرى أطالت أم قصرت ، غمغمت :

- لكنى أخاف أن أبقى فى الشقة وحدى . .

رمية من غير رام ، لم أكن أتوقع ، أنها فى حاجة إلى . . إلى رجل يذهب عنها الخوف ، ويبدد من حولها الوحشة والسكون ، وقلت على الفور :

- «كنت أحسب أن هذا التصرف سوف يرضى ماما» . .

فقالت فى عصبية :

- «لا أستطيع البقاء هنا وحدى . . » .

وتمتمت والعرق يتقاطر على جبهتى :

- إذن فلأجلس لأذاكر معك . . على شرط . .

- «ماذا؟» .

- «أن نشرب شايًا حتى نستطيع مواصلة السهر . . » كانت

مترددة، والظل الكئيب إلى نفسي - ظل أمها - يجثم على المكان كالأخطبوط كالرهيبة البشعة المدمرة، وخيل إليَّ أن أمها قد تهبط علينا كالكارثة في أي وقت، وتدهمنا ونحن متلبسون بالجلوس معًا، وأحسست رغم سفرها.. أنها موجودة هنا.. هي معنا وإن غابت، لكنني تغلبت على هذا الشعور المزعج.. وجلست.. فلأكن صفيقًا بعض الشيء.. وذهبت لتعد الشاي.

كنا نجرع الشاي ونحن نتحدث عن الإنجليزي والفرنساوي والعربي وغيرها، وكنت أحدثها عن نوادر الطلبة والمدرسين والمظاهرات، وكانت هي تضحك من أعماقها، وانفكت عقدة لسانها وأخذت تحدثني عن المدرسات والطالبات في مدرستها.. وأنا أقهقه بسبب وبغير سبب، وبدأنا نذاكر.. كنت أقترب منها وتقترب مني، وكانت يدي تلامس يدها عفوًا فأرتجف وترتجف، وأحيانًا نقرأ معًا في كتاب واحد فتتقارب الأنفاس والوجوه، وأرى وجنتيها تحمران خجلاً، وألسنة من اللهب تلفح كياني كله.

كانت الساعة قد قاربت الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، وكل شيء من حولنا ساكن سكونًا عاصفًا، لم أكن أعي تمامًا ما أقرؤه وأناقشه معها، ولمحت في عينيها سمات الإرهاق ورغبة طارئة في النوم.. لكنني أدركت أنه نوم مصطنع، كان عليَّ أن أغادر حجرتها.. وتوقفنا عن العمل لحظات، ثم تسللت يدي إلى يدها وأمسكت بها، ولما همت بسحبها لم أمكنها من ذلك، وهمست من خلال أنفاسي اللاهثة:

- «سكينة . . أنا أحبك . . من كل قلبى . . » .

وتركزت عيناى على شفتيها ، وكنت أتوقع أن تقول شيئًا ، لكنها سحبت يدها فى إصرار ، ولم أحاول أن أقاوم ، لقد عاد إلى ذهنها على التو كلمات أمها . . الظل الكئيب يبسط رواقه على المكان ، والخوف ينبثق من كل شىء حولنا . . وخيل إلىَّ أن أمها على وشك أن تحضر الآن . . وأن الباب يوشك أن يفتح عن وجهها الجامد الملامح الملىء بالتجاعيد ، وتجلت لى الكارثة المتوقعة تجليًا مروعًا ، وطنت فى رأسى كلمة «الخيبة» . . التى يرددها أبى على سمعى دائمًا ، فانتفضت واقفًا ، ورأسى يفور وتصطخب فيه شتى الأفكار المتصارعة وقلت :

«الوقت متأخر . . تصبحين على خير . . » .

***

عندما عادت أم سكينة فى اليوم التالى بعد الظهر ، ودخلت الشقة ، أحسست برهبة بالغة ، بدا لى أنها تعرف كل شىء ، كان بابى مغلقًا ، لكنى كنت أتصور ملامحها ونظراتها وانفعالاتها وصرامتها ، ولم يطل تفكيرى فقد نادتنى . . وخرجت إليها . . كانت سكينة تقف مطأطئة الرأس ، وشحوبها سرى إلى وجهى أنا الآخر . . لم نستطع أن نواجه نظرات الأم ، كنا أضعف من أن نتماسك أمامها . . وبصوت صارم قالت :

- «كيف حالكم يا أولاد؟» .

وبينما كنت أحاول أن أستجمع أطراف شجاعتى وأتماسك أمامها، سمعت شهقات سكينة وهى تبكى، لم تستطع المسكينة أن تصمد حتى تمر الأزمة، وذابت شجاعتى، لم أعد أستطيع أن أفعل شيئًا بل بقيت جامدًا كالصنم، واندفعت الأم إلى ابنتها فى إشفاق وقالت:

- ما لك يا بنت؟ ماذا جرى؟

فطوقتها سكينة بذراعيها، وكانت تقول من بين نشيجها:

- «وحشتينى يا ماما..».

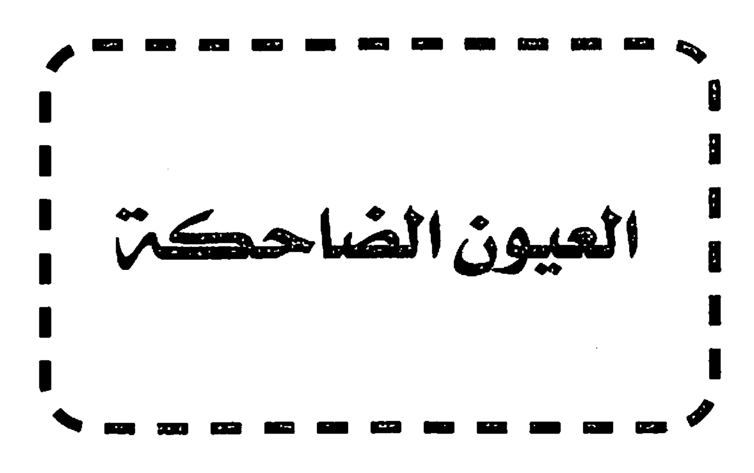
فربتت الأم على كتف ابنتها فى حنان ورضى وغمغمت:

- «روح ماما يا حبيبتى.. من أجلك حضرت بسرعة.. الحمد لله.. أنت بخير.. أليس كذلك؟ ألم يحدث ما ينغصك؟».

- «بخير يا ماما.. لم يحدث أى شىء.. فقد كنت متلهفة على عودتك.. لم أنم الليل من طول التفكير فيك..».

وسرعان ما ردت إلىّ الروح، وأحسست بدبيب القوة والشجاعة والتماسك يسرى فى جسدى.. كانت كل ذرة فى كيانى تهتف بالشكر والحمد لله..

ومع ذلك فقد كنت أنتظر سكينة كل يوم على أقرب ناصية لأرافقها فى الذهاب إلى المدرسة، وأصبحت الحواجز الموهومة التى أقامتها الأم فى البيت لا شىء.. لا شىء على الإطلاق..



العيون الضاحكة

كان فمها الدقيق مطبقًا ، لكن عينيها كانتا دائمًا تضحكان ، تشعان حولها البهجة وتملآن المكان بعبير غامض . . ساحر . . شهى . . إنها فتاة من نوع غريب ، ذلك النوع المتميز الذى يدير الرأس ويلفت النظر .

فى حجرة الدراسة التى تضم أكثر من ثلاثين فتاة ، تبدو بينهن «نسرين» كالعلم . . والأستاذ «الجبالى» ، وهو مدرس تربية وعلم نفس منتدب . . يقف كل صباح بالفصل ، وعيناه تدوران بين الوجوه النضرة الفتية . . الوجوه السمراء والبيضاء والشقراء . . لكن شيئًا ما يجذبه دائمًا إلى حيث تجلس «نسرين» . . ونسرين مغرقة فى الصمت حتى ليظن أنها لا تكاد تفهم شيئًا من الدرس ، والابتسامة المعجزة المحيرة التى تشرق فى عينيها تقلب هذا الظن إلى النقيض ؛ إذ ليس من المعقول أن يكون هذا الجمال الآسر ، وتلك الابتسامة النابضة مطعنًا للشك والاتهام . .

وتحركت فى نفس الأستاذ «الجبالى» نوازع شتى ، وشعر بتغيرات جوهرية تجتاح كيانه كله ، لم يكن يفكر كثيرًا فى المرأة رغم بلوغه الثلاثين من عمره ، وعندما تقرر انتدابه للعمل بمدرسة المعلمات ، ضحك أصحابه طويلاً ، وغمزوا بعيونهم ، وتهامسوا

بكلمات وقحة عن الحب والفتيات العابثات، أما هو فقد هز كتفيه دون مبالاة، ولم يعلق على حديثهم. إن ما يأخذ بخناقه من المشكلات العائلية، والارتباكات المادية، كفيل بأن يصرفه عن كل متعة، وأن يسكت كل صوت متمرد فى أعماقه، ومع هذا فإن زملاءه المدرسين لم يكفوا عن سخرياتهم وتعليقاتهم اللاذعة.

كان جبالى يتذكر هذه التعليقات وهو ينتصب واقفًا بعوده النحيل وملامحه الدقيقة الوسيمة وسط مقاعد الفتيات، وكانت الوجوه التى أمامه تبدو فى ناظريه وكأنها ظلال مطموسة بلا معالم.. وجه واحد كان يشرق، ومن خلف الأهداب تطل ابتسامة خالدة، وعندما ينام جبالى فى غرفته منفردًا، يستلقى على ظهره ويضع ذراعيه خلف رأسه، ويتناسى «فرويد» ونظريات علم النفس ولا يطوف برأسه غير خيال «نسرين»، وفى الصباح الباكر، يهرول فى أتم زينة متعلقًا بأول ترام، قاصدًا مدرسة البنات، وعيناه تتفحصان أفواج الفتيات الذاهبات مع الصباح الوليد إلى مدارسهن، متوقعًا فى كل مرة أن يجدها، وعندما يدق الجرس يدق معه قلبه، وتتلاحق أنفاسه، ويقصد من فوره إلى الفصل المعهود، وسيماء الارتباك والذهول تصاحب خطواته المتعثرة، فيمر بالمدرس الأول وبزملائه وزميلاته من هيئة التدريس فينسى أن يلقى عليهم تحية الصباح.

فى داخله كانت تنمو بذرة حب عنيف، كانت أعماقه ميدانًا لصراع نفسى هائل، عواطفه تشتعل وتحترق دون دخان، ليته

يعرف طريقة ينفس بها عن أشواقه المعربدة المكتومة، لكنه طبع على الجبن، والصمت.

وبات جلياً أن جبالى يحبها حباً جارفًا، لكنه أدرك بعد طول عذاب أن حبه المكتوم فى حناياه لن يكون شيئًا إذا ظل حبيس ضلوعه. وإذا لم يفتح نوافذ قلبه وأبوابه، ويطلق هواه من قيوده، فلسوف يموت حبه وتندحر آماله، ولسوف تتعفن البذرة المقدسة فى أرض الظلمات والكتمان والجمود.. لكن ماذا يفعل؟ أيستشير أحد أصدقائه؟ إنه لو فعل ذلك لأصبحت فضيحته على كل لسان، وألغى انتدابه فورًا. أيذهب إلى نسرين ويفاتحها فى الأمر؟ لا.. لا.. من المستحيل أن يفعل ذلك، إنه قد يفكر فى زحزحة المقطم من مكانه.. هذ أهون عليه من مواجهتها، والتصريح لها بحبه.. أم من الأوفق والأعقل أن يذهب إلى أبيها ويعرض نفسه زوجًا لابنته؟ قد يكون هذا مقبولاً ويحتاج لقدر قليل من الشجاعة. أبوها لا شك رجل عاقل يفهم مصلحة ابنته أكثر مما تفهمها هى. هل يتصور عاقل أن يرفض أبوها مدرسًا متخرجًا فى معهد التربية العالى وحاملاً لليسانس الآداب، ومقبولاً شكلاً وموضوعًا؟ وغمغم جبالى فى راحة.

- «حد لاقى عريس فى الوقت ده».

وفى اليوم التالى ذهب جبالى إلى المدرسة. الوجوه النضرة تملأ حجرة الدراسة، نظرات مرحة هنا وهناك، وابتسامات بلا معنى

ترتسم على الوجوه، وهمسات مجهولة المصدر تلامس أذنيه.
وعندما وقعت عيناه على نسرين لم يستطع أن يصدق. لأول مرة منذ وطئت قدماه هذا المكان يراها وقد انطفأت الابتسامة من عينيها، وساد وجهها شحوب ظاهر، وارتسمت الكآبة على ملامحها. كانت كآبة صامتة وآثار احتقان فى عينيها. وشعر جبالى بألم وحشى ينهش فواده، ويمزقه بلا رحمة. اجتاحته موجة من الهم مباغتة. أفى اليوم الموعود الذى قرر فيه أن يخطو الخطوة الحاسمة يصدم بهذا التغير المنذر بالخطر؟! حاول جاهدًا أن يبعد نظراته عنها. حاول أن يجمع خيوط الدرس المزمع شرحه. استطاع على وجه ما أن يؤدى واجبه. لكنه لم يستطع أن ينسى الابتسامة المنطفئة، والوجه الشاحب الحزين. فقرر أن يستقصى الأمر..

وبعد خروج الطالبات كان جبالى يسير فى الطريق وعيناه لا تفارقان نسرين. كان يسير وليس فى رأسه خطة معينة. حاول أن يفكر فى أى شىء. حاول أيضًا أن يخطو خطوة تقربها منه، وغفل عنها لحظات وقد جرفه تيار الفكر إلى خضم صاخب مضطرب، وعندما أفاق إلى نفسه، جرت نظراته باحثة عنها فى الطريق العام وسط الرائحين والغادين، وتسمرت عيناه فجأة..

كانت نسرين تقف إلى جوار شاب أنيق مرفوع الرأس فى كبرياء.. وكان منديلها الأبيض الصغير يجفف دموعًا تنسكب من بين أهدابها.. ولم يدرِ جبالى هل طال به الوقت أو قصر، كل ما يعرفه إنه سار نحوهما كالمسحور.. هل انتوى شيئًا؟ هل قرر

التدخل بينهما؟ هل؟ هل؟ علامات استفهام كثيرة لم ترتسم فى رأسه أو تحاول إيقافه عن تقدمه.

وتنبهت نسرين إلى مقدمه. كانت دموعها قد جفت، ومنديلها لم يعد فى يدها، والابتسامة المتألقة الشهية قد أشرقت فى عينيها من جديد، وافتر ثغرها هو الآخر عن ابتسامة حلوة، وحينما تحلق ثلاثتهم متجاورين، كان الأستاذ الجبالى يقف كصنم من القلق، وكان الرجل الثانى ينظر إليه فى غرابة، وسارعت نسرين دون أن يساورها أدنى ارتباك وقالت:

- «أقدم لك الأستاذ الجبالى مدرس التربية وعلم النفس».

ثم قالت وهى تشير إلى الرجل الثانى:

«حمدى.. ابن خالتى.. ضابط بوليس..».

تهادت العبارة الأخيرة إلى أذن الجبالى، فى لهجة شبه رسمية. كان يستقبلها وكأنه فى حلم مزعج رهيب، وعلى الفور تذكر جبالى الابتسامة التى أشرقت طوال الأيام السالفة، ثم انطفأت اليوم، ثم كيف عادت إلى الإشراق والتألق من جديد فى الشارع العام، ومع رجل آخر..

وتمتم جبالى فى صوت بائس ذليل يحاول أن يتماسك:

- «تشرفنا يا أفندم..».

وسار جبالى فى الطريق العام وحده. لا يحس بالضجيج حوله.

وفى لحظات يأسه وغرقه، انبعث من أعماقه صوت أمل: «قد يكون الأمر مجرد عبث.. وهذا يعنى أن الأمل فى نسرين لم يمت، إن عيبى دائمًا كان وما زال هو الاستسلام السريع.. يجب أن أتعلم كيف أناضل وأستمر حتى نهاية الشوط.. كثيرون مثلى يسقطون، ثم ينهضون من جديد.. وقد تصيبهم بعض الخدوش والكدمات.. لكنهم يصلون فى النهاية.. ونسرين شغلت كل ذرة من كيانى، وأنا أحبها.. واليأس موت.. ولن أحفر قبرى عند أول لحظة يأس..».

***

شعر جبالى أن أعصابه مرهقة، ورغبته فى العمل ليست كما يجب، وآنس فى نفسه ميلاً للراحة أسبوعًا والاستجمام؛ حتى يستطيع أن يلم شعث نفسه، ويستجمع ما تبعثر من قواه وأفكاره، غير أن هذا الأسبوع لم يمر كما يشتهى.

كان حقاً يستمتع بقدر كافٍ من الراحة البدنية، فلا يستيقظ إلا قبيل الظهر، ولا يخرج إلا للتنزه واستنشاق هواء النيل وارتياد دور السينما. لكن صورة نسرين لم تفارق خياله لحظة. وصورة الفتى الفارع الذى يرفع هامته فى كبرياء تلح عليه، ويأس ضارب يتغلغل فى أعماقه لولا بقية من أمل..

وفوجئ الأستاذ الجبالى عند دخوله الفصل بعد إجازته بزغرودة عالية، أعقبها ضحك وهرج ومرج بالفصل. وعندما وقف بين

صفوف المقاعد المتراصة، عاد السكون تدريجياً، كانت على الوجوه فرحة طارئة. وكانت نسرين تبتسم بعينيها وشفتيها. وبدا أن الفتيات يردن أن يقلن شيئًا. وهمس الأستاذ:

- «ماذا جرى يا بنات؟».

وكما ينتظر الجنود ساعة الصفر ليفجروا أطنان المفرقعات. كذلك كانت الفتيات، فقد تسابقت عشرات الأصوات معلنة:

- «عقبى لك يا أستاذ.. نسرين كانت خطبتها أمس. انظر.. انظر يا أستاذ.. الدبلة فى أصبع يدها اليمنى.. وقالت نسرين وهى تخفض رأسها فى حياء وخجل:

- كفاية بقى.. البيه شاف العريس..

ولم يجد جبالى مخرجًا من ارتباكه وأساه الدامى سوى أن يثور وينفعل، ويرمى الطالبات بالفوضى وسوء الأدب وتحويل الفصل إلى سوق. ثم انفلت خارجًا وسط دهشة الفتيات، ودهشة نسرين بالذات.. ولم ينسَ جبالى وهو يشكو للناظرة سوء تصرفاتهن أن يخبره بأنه قد قرر إلغاء انتدابه؛ لأن حالته الصحية لا تمكنه من العمل فى مدرسة بنين ومدرسة بنات..

وفى الشارع الطويل المليء بالضجيج والعربات والأحياء كان صوت أحد المتسولين ينبعث حزينًا مترنمًا:

وصبحت أدورع الأحباب.

فى يوم جمعة .

والعين بتبكى ولم ينشف .

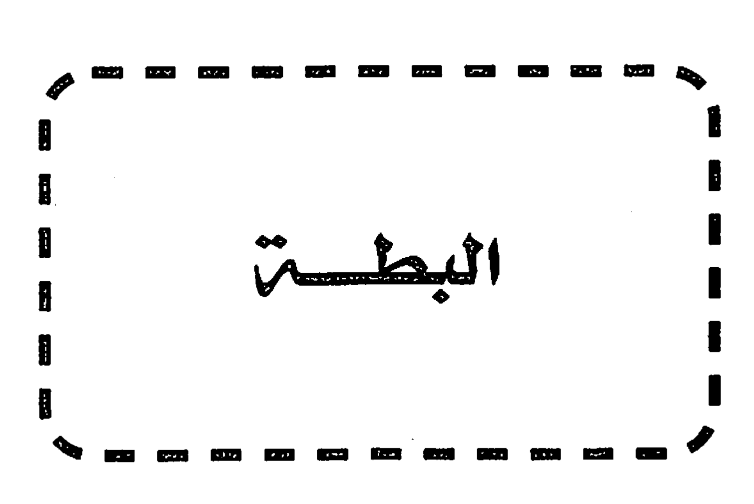
لها دمعة .

يا ليلى . . يا عينى . .

كان جبالى يسير وحده . . شاعراً بأنه لا شىء يربطه بهذا العالم الواسع الكبير . . ودمعة كبيرة تبلل أهدابه . .

تمت

***


البطـــة

لم تنم «نجية» هذه الليلة المشئومة إلا غرارًا، وكيف تنام وآلام الصداع الشديد تهوى على رأسها كالمطارق، وفى جوفها هو الآخر شىء يشبه الغول يبدو أنه ينهش فى معدتها وأمعائها بلا شفقة؟! وإذا ما حاولت أن تنهض من فوق حصيرتها البالية المتآكلة خفق قلبها بشدة، وخانها ذراعها وشعرت بالوهن يكبلها بقيود ثقيلة مرهقة تشدها إلى الأرض.. أكلُّ هذا سببه الجوع؟! أجل.. إنّ الجوع يبدو الآن فى خيال «نجية» وكأنه وحش هائل.. طاغية جبار قاسٍ لا يرحم.. لا يقاس طغيانه بتعسف زوج أمها الفلاح الجلف، ولا بتعنت عمدة القرية وهو يدهم بيتهم الحقير ليبحث عن شىء مسروق يتهم فيه زوج أمها.. وإلى جانب ذلك فنجية عمياء.. إنها لم ترَ النور منذ خمسة عشر عامًا، عندما كانت فى السنة الثالثة من عمرها التعس.

وأخذت نجية تزحف وتتلمس الطريق إلى أركان الحجرة المظلمة باذلة فى ذلك جهدًا مضنيًا، وأخذت تتحسس الأشياء الملقاة هنا وهنا؛ أملاً فى أن تجد لقمة جافة مختبئة بين المقاطف، أو منزوية فى «بقجة» أو منطمرة فى التراب الذى يغطى أرض الحجرة، ولم تكن هذه بالمرة الأولى التى تقوم فيها بمثل هذا العمل، فقد كررته ثلاث

مـرات دون أن تعـثـر على شيء، لكنهـا اصطدمت آخـر الأمـر «بالبلاص» الموجود قرب باب الحجرة، والذى رشح منه الماء فبلل ما حوله حتى أصبح التراب عجينة رخوة، وجرت «نجية» بأناملها على فوهة «البلاص» الموجود قرب باب الحجرة، والذى رشح منه الماء فبلل ما حوله حتى أصبح التراب عجينة رخوة، وجرت «نجية» بأناملها على فوهة «البلاص» ثم قربت فمها منه، وأمالته حتى ينساب الماء ليبلل حلقها الجاف، ويلهى - ولو لفترة وجيزة - ذلك الغول الذى لا يكف عن النهش فى جوفها . .

والآن ماذا تعمل نجية؟

ها هو اليوم الثالث قد طلع صبحه عليها دون أن تجد شيئًا يقيم أودها، وزوج أمها الآخر لم يأتِ منذ أربعة أيام، لأنه ينتقل من حقل إلى حقل يسقى ويزرع ويحصد مقابل قروش قليلة فى اليوم . . إنه مشغول . . لا بد أن يدفع من بدنه أضعاف أضعاف ما ينال من أجر وإلا كان مصيره مثلها . . ونجية تكرهه جداً . . وتستثقل اللحظات التى يقضيها فى البيت، فهو لا يفتأ يعيرُها بعماها . . ودمامتها . . وشكلها «اللى زى بوز القرد» على حد تعبيره، ويحمل على قعودها وكسلها، ويلمح - وأحيانًا يصرح - إلى داء الصدر المستكين فى رئتيها . . ذلك الداء الذى حرم عليها دخول بيوت الأغنياء وذوى اليسار كى تغسل وتكنس وتخدم وتحمل الأطفال كما كانت تفعل فى الزمن الماضى . . لكنها الآن «وباء» أو «شوك» الخطر كل الخطر فى الاقتراب منها . . ليس هذا

فحسب، بل إن زوج أمها لا يفتأ يشير إلى ماضيها -غير الشريف- وما فيه من خطايا . . وسقطات . .

ومع ذلك فقد كانت نجية تتمنى من صميم فؤادها أن يعود ذلك الرجل القاسي؛ فهو على أية حال لن يضن عليها بلقيمات تسد رمقها.

لكنه أمل بعيد التحقيق، وخاصة أن أمها قد غادرت القرية منذ شهرين لزيارة ولدها الخادم في «طنطا»، ولتقوم في الوقت نفسه بالخدمة مقابل المأكل والمشرب، وكثيرًا ما كانت تغيب لشهرين أو ثلاثة بين فترة وأخرى، ثم تعود إلى بيتها. إن زوج أمها لا يحرص دائمًا على المجيء ما دامت الزوجة في إحدى سفرياتها.

المطارق ما زالت تهوى على رأس نجية دون هوادة . . وتقلصات المعدة الخاوية تبعث على التوالي بموجات من الألم تضغط على عنقها . . على كيانها كله . . ونوبات السعال تدهمها من وقت لآخر، فتبصق حيثما اتفق . .

هل نجية تستحق كل ذلك؟

صحيح أنها سرقت . . سرقت المال . . والملابس . . والطعام وخاصة بيض الدجاج، سرقت كثيرًا ولم يكن عماها عقبة في طريق مآربها الشاذة.

وصحيح أنها فرطت في نفسها، دون أن تكون دمامتها مانعًا للذئاب البشرية من افتراسها . . والأعجب من ذلك أن من اقترفوا

معها الخطيئة - كما أشيع - كانوا من أبناء ذوى اليسار والثراء فى القرية لأنها بطبيعة عملها كانت تخدم فى بيوتهم تلك التى تتسم بالمحافظة وترعى التقاليد والآداب . .

وصحيح أنها كذبت لتحقق كسبًا ما . . لتعيش . . وأنها مشت بالنميمة والوقيعة بين الكثير، وكانت تؤلف من قصص الغرام المثير . . كل ذلك حدث . . بل وأكثر منه، لكنها الآن وبعد أن دهمها الداء الخطير قد تابت إلى الله، وأسدلت على الماضى ستارًا كثيفًا . . لكن الشيء غير المتأكد منه هو: هل توبتها صادقة نابعة من أعماق قلبها أم هى توبة فرضتها الظروف القاهرة، وأرغمها عليها ذلك المرض الذى أذوى شبابها . . ؟ أو . . ما الذى دفع «نجية» إلى التفكير فى التوبة . . والماضى . . والمرض، إنها جائعة . . جائعة . . هذه هى الحقيقة التى تملأ عالمها الأسود المظلم، وتطن فى أذنيها، وتهوى مع المطارق على رأسها، وتزامل الغول القاسى الرابض فى جوفها الخاوى من الطعام.

لن تستطيع نجية أن تقتات؛ من الظلام الذى يغمر الحجرة أو الظلام الذى يغلف عالمها، ولن تسع إليها اللقمة وهى ملقاة على حصيرتها تئن وتتوجه وتسعل، ولن يستطيع «البلاص» أن يشبع جوعتها بالماء الذى تعبه من وقت لآخر، فوجب عليها أن تغادر الحجرة . . أن تتحرك إلى خارج البيت وتجلس على المصطبة الممتدة بحذاء الشارع، إن سقف الحجرة بالتأكيد لن يمطرها بالأرغفة، أما الشارع فقد تتناثر على جانبه كسرات من هنا وهناك، أو من أفواه الأطفال السذج الأغرار . . وتحركت نجية من قبرها الأسود،

وتحاملت على نفسها، وأخذت تنقل خطواتها فى بطء وإعياء، متخذة الحائط مرشدًا ودليلاً لها . . كانت أنفاسها تتلاحق وهى تخطو، وكان قلبها ينبض نبضًا قوياً، والسعال لا يفتأ يعاودها من لحظة لأخرى، والعرق يتفصد من جبينها الشاحب الأسمر، وكانت تفوح منها رائحة منفرة . . أكانت هذه الرائحة بسبب الجراثيم الكامنة فى صدرها أم بسبب فمها الذى لم يذق الطعام، أو منبعثة من ملابسها الرثة القذرة التى اختلط فيها العرق بالتراب؟!

ووقفت نجية على عتبة الباب، ولم يكن يفصل بينها وبين الشارع العمومى إلاّ عطفة ضيقة قصيرة قد ازدحم فيها السماد والأتربة والأحطاب وأطفال يثبون من مصطبة إلى أخرى، أو يركبون خروفًا أو عنزة.

وتناهى إلى سمع نجية الضجة والحركة التى تثور فى الشارع الكبير، فاليوم هو يوم «سوق القرية»، وأصوات النسوة تختلط وتتضاد وهن يساومن على أثمان الزبدة والجبن والحبوب والطيور، والباعة يرسلون بنداءاتهم المختلفة وهم يمرون بالشارع، والأهم من هذا أو ذاك تلك الروائح التى تسابقت إلى أنف نجية . . الفسيخ . . العلمية . . السمك المقلى . . اللحوم . . الجوافة و . . و . . إلخ، إن هذه الأشياء قد تسربت رائحتها إلى خياشيم نجية، فأيقظت حواسها وذكرتها بالحرمان . . بالجوع والعذاب . . الذى تقاسى منه . . ليتها لم تغادر الحجرة وظلت كما هى - تسامر بؤسها وشقاءها - بعيدًا عن الناس حيث الصمت والظلام والألم والموت

البطىء . . لكنها لم تستطع . . إن شيئًا فى أعماقها يحرضها ويدفعها لأن تتشبث بالحياة، وتتمسك بأهدابها وتقاوم معاول الهدم والفناء والمرض حتى آخر لحظة، لأن تتحرك وتحاول أن تعيش، إنه دافع فطرى جبار أقوى سلطانًا من أى شىء . .

وانتابتها نوبة سعال شديدة بعد فترة سكون، وكان بالقرب منها بطة تنبش الأرض، فدلفت هذه البطة إلى الداخل فى فزع عندما قطع السكون نوبة السعال المفاجئة، وأحست نجية بها وهى تدلف إلى البيت . . وبرقت فى ذهنها فكرة. . وبدون وعى أو تدبر تراجعت نجية إلى الداخل بسرعة، وأغلقت الباب فى لمح البصر وأوثقت رتاجه، لماذا؟ ومن أين لها هذه الدفقة من النشاط المباغت التى جعلتها تتحرك بسرعة؟ لم تكن تدرى . .

وفركت «نجية» يديها فى عصبية ظاهرة، ورطبت شفتيها الجافتين بلسانها، ثم تحسست رأسها المصدع، ومعدتها الخاوية، وصدرها الذى يعلو ويهبط وهمست :

«إنى جائعة . . يجب أن آكل . . » .

وأين التوبة والندم وتناسى الماضى يا نجية . . ؟ إنك ما زلت قذرة . . لصة . . فاسقة، ولن يغفر الله لك هذه المرة، ولن يشفيك من الداء الوبيل . . » .

كانت هذه الكلمات تتسابق وتهوى على ضميرها وكأنها سياط من نار . . لكن نجية تجاهلت هذه الأوهام فى حمأة الانفعال . . إنها

ترتعد بعنف، كثيراً ما سرقت حتى أصبحت السرقة عادة تؤدى آلياً، لكنها هذه المرة تبدو وكأنها تسرق لأول مرة. . إن مشاعرها فى القمة من التوتر، وضعفها قد زايلها لدرجة معينة، ونشاط غريب قد دب فى جسدها الواهن المعروق، حتى السعال هو الآخر قد توقف مؤقتًا. .

ما الذى يمنعها الآن من تحقيق ما اعتزمته؟ هذه فرصة نادرة ستحفظ لها حياتها، وقد تشفيها من دائها، فالجميع يوصونها بالغذاء الجيد رغم علمهم بحقيقة حالها. . «هيا. . هيا. . يا نجية فقد تفلت الفرصة من يدك. . التردد والجبن فى هذه اللحظة جناية لا تغتفر. . فى حق الحياة. . » وأخذت نجية تهاجم البطة. . اندفعت نحوها تقبض عليها بأصابعها المتشنجة. . لكنها أخطأتها. . وأخذت تتحرك هنا وهناك باحثة عن البطة كالمجنونة وألحت فى مطاردتها. . العرق يتساقط من جبينها، وأنفاسها تتلاحق. . «أين البطة ها هى». لكنها أفلتت منها، ما لنجية تكاد تنهار تمامًا، يجب أن تستجمع شجاعتها، حتى تدع حداً للأمر، واستطاعت نجية أخيراً بعد بذل مجهود عنيف أن تحصر البطة داخل الحجرة المظلمة المتربة، وها هى تغلق الباب -باب الحجرة- وتبقى هى والبطة وجهًا لوجه، إنها تصطدم بالبلاص.

البطة تحاول أن تفر منها حتى لكأنها أحست بما تضمر لها من شر، لهذا زعقت وأخذت تضرب بجناحيها وتبدى شيئًا من المقاومة، البطة هى الأخرى يبدو أنها أدركت الخطر المحيق بها

فخافت على حياتها . . تمامًا مثل نجية . . لكنها أخيرًا أصبحت فى قبضتها المتشنجة . . «حسنًا ها هى البطة الآن فى يدى» ونوبة سعال حادة تجتاح نجية وتهزها هزآ عنيفًا ، لكن لا بأس ما دامت قد أمسكت بالبطة . . بسر الحياة الغالية رغم ما فيها من بؤس وشقاء وأوجاع ، فالحياة فى حد ذاها - على أية صورة - شىء عزيز يجب أن يحافظ عليه ، والتفريط فيها جنون وبلاهة يجب ألا يتصف به إنسان مهما كانت ظروفه .

لكن كيف تذبحها؟ تقطع رقبتها بأى وسيلة كانت ، لأن الذبح بالطريقة المعروفة ، أمر لم تجربه من قبل ، فضلاً عن أنها لا تستطيع أن تنتدب إحدى نساء الشارع للقيام نيابة عنها بهذا العمل فقد ينكشف أمرها ، وتنشر فضيحتها فتكون الطامة الكبرى ، لهذا حاولت أن تلوى رقبة البطة بين يديها وتقطعها . ولكن هيهات . إن ذلك فوق طاقتها . . والبطة تزعق وتستغيث ، إذن ما الحل؟

فكرة جميلة إن الفأس الصغيرة التى يحتفظ بها زوج أمى هنا فيها الكفاية . . إنها كالنصل الماضى ، وفى دقائق معدودة كانت رأس البطة منفصلة عن جسدها ، وكانت الحلة على النار وفيها استعداد لإنضاج الطعام المحرم . .

كانت نجية أمام «الكانون» وأعصابها غاية فى التوتر والإرهاق ، إن مجرد سقوط بعض الأحطاب الجافة ، أو صدور بعض الأصوات فى العطفة أو الشارع يجعلها تنتفض من قمة الرأس إلى أخمص القدم . .

نقرات على الباب الخارجى . .

يا للمصيبة ماذا تعمل نجية؟ كيف تتصرف؟ ثم من تلك التى تقرع الباب؟ النقرات الخفيفة على الباب تتحول إلى ضربات شديدة . .

وبدون وعى منها صاحت نجية : «من»؟

فجاءها الصوت الأجش الغليظ «افتحى يا بنت الـ . . » .

إنه صوت مألوف معروف لديها كل المعرفة . . صوت زوج أمها . . إنه عاد أخيراً، ليته عاد مبكراً حتى أوقف هذه الجريمة فى حق البطة وأصحاب البطة ؛ لأنه غالبًا ما يعود ويحمل معه شيئًا إن نقودًا . . أو طعامًا . .

وعندما فتحت الباب ، قابلها زوج أمها بقاموس قذر من الشتائم والتعليقات المريرة . . ثم قال : «أنت جوعانة؟» .

فلم تجب نجية ، لكنه لم ينتظر الإجابة فقد قذف فى وجهها بلفة وهو يقول : «رغيف وطعمية . . خذى اطفحى» وتناولت نجية اللقمة من فوق الأرض دون أن تنطق ببنت شفة . .

- «الله . . ما هذا؟ نار . . . وطبخ؟» .

وفى لحظات قصار استطاع الزوج أن يرغمها على فتح فمها المطبق والتكلم ، وفهم منها كل شىء ، فانبسطت أساريره ، وأظهر الرضى عن فعلتها ، ومع ذلك فقد قال ساخراً : «رجعت ريمة لعادتها القديمة . . . هيه الحرامى حرامى طول عمره ولو عاش فى نعيم» فزمجرت الفتاة قائلة :

- «نعيم؟! طول عمرنا فى جحيم . . » .

ووثب إلى ذهن الرجل سؤال ، فهتف فى وجل :

- «لكن بطة من؟؟» .

- «بطة والسلام . . » .

- «يخرب بيتك فيه ناس مساكين . . » .

فرددت فى غيظ :

- «لا أحد أبأس منا . . » .

كانت نجية تزدرد الخبز والطعمية دون أن تقيم اعتباراً للسعال الذى ينتابها فلم تتوقف عن الأكل ، لهذا كان الرذاذ يتطاير من فمها حاملاً معه فتات الطعام .

***

كان الرجل وبنت زوجته يأكلان لحم البط فى المساء فى شغف ولذة . . وكانت اليدان تتسابقان فى نهم ينبى عن حرمان شديد ، فتناهى إلى سمعهما صوت فى الشارع ينادى :

بطة تايهة يا ولاد الحلال .

وحلوانها . . .

فقال فرحات ساخراً : «ردى يا بنت الحلال على المنادى» .

فقالت نجية فى اقتضاب : «كل وأنت ساكت . . » .

- «فاجرة . . صحيح» .

فلم تكلف نفسها مئونة الرد عليه، حتى لا تضيع على نفسها فرصة التهام أكبر قدر ممكن من لحم البطة وحتى لا تثيره فيلكزها كدأبه دائمًا بيده الجافية الغليظة التى لا ترحم، وحتى لا يتمادى فى الحديث فينكأ جراحها ويعيرها بماضيها الملوث، وحاضرها البائس المشئوم .

وفى اليوم التالى كانت الشائعات تحوم حول بيت نجية، فقد رأى البعض الدخان بالأمس وهو يتصاعد من بيتها - وهذا نادرًا ما يحدث - وزعم آخرون أنهم رأوها وهم فوق السطح تضع البطة فى الحلة لتنضجها، وفريق ثالث يؤكد أنه رأى البطة تدخل إلى بيت نجية التى أغلقت الباب خلفها، وانتقلت الشائعات إلى مرحلة من اليقين، واتضح أن البطة المفقودة هى بطة «أم السعد» بائعة الفجل والجرير والكرات . . إنها هى الأخرى مسكينة وليس أولى على ذلك من أنها كانت تلطم وجهها، وتشد شعرها، وتبكى وتضرب الأرض بكفيها عندما اكتشفت ضياع بطتها الوحيدة .

ودخل موكب من النسوة الفضوليات إلى بيت نجية، وأخذن يجمعن الريش والعظام من أركان البيت . . كان ذلك هو الدليل القاطع الذى سوف يدمغ أهل البيت بالخيانة والسرقة ووجد النسوة ما أردن العثورعليه .

يا للفضيحة . . التعليقات المرة الساخرة . . تتطاير من الأفواه وتتناول نجية وزوج أمها فرحات . .

- «فرحات ونجية سرقوا البطة . . » .

- «فرحات يحب الكبدة، ونجية تعشق الصدر» .

- «أرزاق يا جدعان . . » .

- «الله يخرب بيوتهم . . ناس بلا تقوى ولا دين . . » .

أما زوج أم السعد صاحبة البطة وهو مقرئ للقرآن فى المقابر والمآتم - فيصر على أسنانه ويقول فى غيظ ومقت شديدين :

- ألا تعلمون أن عقوبة السرقة هى قطع اليد يا من لا تحترمون الشريعة . . . إلخ .

- «أية شريعة يا عم الشيخ؟ ! قل يا باسط . . » .

- «علىّ الطلاق من مَراتى لأكتبن فيهما شكوى إلى حضرة العمدة . . » .

***

وأمام العمدة وقف فرحات . . ووقفت نجية . . العرق يتفصد من جبينها . . صدرها يعلو ويهبط ونوبات السعال تهاجمها بلا هوادة . . وصاح العمدة :

- رد يا ولد يا فرحات؟ ألا تسمعنى؟ من سرق البطة؟

فقال فرحات وهو مطرق :

- «أنا . . » .

- «أنت حمار؟» .

- «نعم . . ومستعد لدفع ثمنها فى بحر يومين . . ؟

فقال العمدة فى سخرية ناقمة :

- كـان زمـان . . فـات الأوان يا حـبـيـبى . . وشـرفى . . لازم أسجنك» .

وبعد فترة صمت ، التفت فرحات إلى نجية ، وقال فى لهجة ذليلة :

- «ارجعى أنت إلى البيت ارجعى يا أصل البلاوى . » .

فرحات فى طريقه إلى البوليس . .

ونجية تتحسس الطريق إلى بيتها . .

وأم السعد تلطم خدها وتضع التراب فوق رأسها باكية . . وعدد من الأطفـال يقـولون بصـوت منغم : الحـرامى أهه . . الحـرامـيـة أهه . . »

تمت

***

فخـر الزمـان

عيادة الجراحة متكدسة بأنماط مختلفة من الناس . . نساء، ورجال، وأطفال، وأصوات كثيرة عالية مختلطة، وتومرجى العيادة لا يكف عن الشجار ودفع أمواجهم المتدفقة لدى الباب إلى الخلف، وصيحاته تتوالى «قفوا صفاً واحداً . . إنت يا ست اعملى معروفًا . . يا رجل عيب . . إنت شايب والجو حار . . ورائحة العرق تختلط برائحة الليزول ومختلف العقاقير، فتثير التقزز، وتبعث على الضيق، وتناول الطبيب الجراح الورق من المريض الذى يقف أمامه دون أن يكلف نفسه مئونة النظر إلى وجهه، وقرأ الطبيب فى تكاسل وملل خطابًا مرفقًا بتذكرة المريض:

«السيد الدكتور مدير مستشفى أم المصريين بالجيزة . . بعد التحية . . محول لسيادتكم المريض فخر الزمان عبد المجيد، رجاء توقيع الكشف الطبى عليه، وإجراء اللازم . . إلخ» .

ورفع الطبيب رأسه، وحملق فى الشخص الواقف أمامه، كان شاحب الوجه، بارز الوجنتين غائر العينين، منتفخ البطن لدرجة تلفت النظر، وأنفاسه تتلاحق فى صعوبة ظاهرة . وهمس الطبيب ساخرًا وقد هاله التناقض الكبير بين الاسم وصاحبه :

- «أنت إذن فخر الزمان؟!» .

- «نعم يا بيه . . » .

- «من أى بلد؟» .

فمال فخر الزمان برأسه، مقربًا وجهه من وجه الطبيب، آملاً أن يسمع كل كلمة أو همسة ينطق بها الطبيب الجالس أمامه، وحاول أن يتكلم، لكن كلماته بعثرت ثم توقفت بينما دهمه التومرجى من الخلف وجذبه قائلاً :

- «تكلم يا لوح . . انطق . . ابعد خلقتك الغلط عن الدكتور . . انطق البيه وراءه عمل كثير» .

وازداد فخر الزمان ارتباكًا وازداد وجهه شحوبًا، ولم يستطع أن يحتمل شدة الموقف وما لازمه من حرج، فالتومرجى يهزه مغتاظًا، والطبيب يرمقه فى صبر نافذ، وأعين المرضى المتكدسة تحملق فيه، فأفلتت من عينيه دمعة . . وفى الوقت نفسه شقت الجمهور امرأة فارعة، تميل إلى البدانة، الكحل يغرق عينيها، وعقد من الكارم الأصفر يزين صدرها، وجلباب ريفى أسود يبرز مفاتنها وجمالها الأخاذ، وصرخت المرأة مهتاجة :

- «ماذا جرى؟ حرام عليكم . . الرجل مريض ومحتاج لعطفكم . . » ودفعت التومرجى إلى الخلف فى شراسة، وهنا انتصب الطبيب واقفًا وقال فى لهجة آمرة :

- «هذه فوضى . . اخرجى يا ست . . لست فى «دوار» جدك عليه السلام . . » .

- إنه زوجى يا بيه . . وعنده الطحال . . ».

وكما كان التناقض غريبًا بين اسم المريض وحقيقته، فقد كان كذلك بالنسبة له ولزوجته الفاتنة، ووسط الضجيج والشجار، وكلمات السباب التى تنطلق من أفواه التومرجية والمرضى استطاع الطبيب أن يخلى الحجرة، كى يدخل المرضى واحدًا واحدًا، وحينما عاد الطبيب إلى مجلسه خلف المنضدة الخشبية الجرباء التى تفصل بينه وبين المريض الواقف أمامه دارت برأسه الأسئلة التقليدية التى يوجهها إلى كل مريض، مستفسرًا عن تاريخ المرض، وكيف بدأ، وكيف تطور، وهل أصيب بحرقان البول أو الإمساك و . . . إلخ . . » تلك الأسئلة الكثيرة التى لم يكن الطبيب يستطيع أن يوفيها حقها أمام هذا الطوفان المتدفق نحوه من باب حجرة الكشف الضيقة . .

- «م تشكو يا فخر الزمان . . ؟».

- «لا تتعب نفسك . . أنا أعرف مرضى يا سيادة الدكتور . .

- «ولم جئت إذن؟ . . ».

- «أمر الله . . ».

فقال الطبيب متضايقًا . .

- «كفى فلسفة . . احك عن مرضك كى ننتهى . . ».

وأجاب المريض فى نظرة إخلاص وتذلل :

- «لست مريضًا بالطحال كما زعمت زوجتى بنت الـ . . أنا مريض بالحسرة».

- «حسرة!! ماذا تقصد؟».

- «أجل الحسرة . . ياما رأيت . . القلب فيه كثير . . هموم على هموم . . ».

وأراد الطبيب أن يضع حداً لما سماه هوسًا وغباء، فسحب المريض من يده وأدخله خلف ستارة زرقاء، وأرقده على منضدة مفروشة بغطاء أبيض، وأخذ يلقى عليه التعليمات المعتادة كى يستطيع الكشف عليه بدقة وبسرعة، فأطاعه فخر الزمان ونفذ أوامره حرفياً، لكنه لم يكن يكف عن ترديد كلمة «الحسرة» وكيف أن الحسرة جاءت فى بطنه، واتخذتها مكانًا للتنفيث فتكومت هناك، وأبرزت ذلك الورم الكبير الذى يبدو جلياً من بعيد، واستمر الطبيب فى فحص المريض، والمريض لا يكف عن الكلام والثرثرة التى كانت تبدو وكأنها تخريف، ولما لاحظ المريض أن الطبيب يسأله عن البلهارسيا وهل عولج منها منذ مدة بعيدة أم لا، قال مؤكدًا . . يا بيه كل الفلاحين عندهم بلهارسيا . . إنها ليست مرضًا . . ولم أنا بالذات أصبت بهذا الورم فى بطنى؟! . . لا شىء غير الحسرة . . بعد أن أتم الطبيب فحصه ظهراً لبطن، عاد إلى مجلسه خلف المنضدة الخشبية وعاد المريض إلى موقفه الأول، بينما أخذ الطبيب يشرح له كيف أن إصابته بالبلهارسيا قديمًا، قد تسببت

له فى تضخيم الطحال، وضعف البنية، وأفهمه أن علاجه الوحيد هو استئصال الطحال، وقال له: إنه يتمنى أن يحجزه فى المستشفى بالقسم الداخلى لإجراء العملية، لولا انشغال جميع الأسرة وأمهله أسبوعًا آخرًا.

ولم يرقَ لفخر الزمان ما قاله الطبيب فيما يتعلق بالتشخيص أو العلاج، وخاصة أن الطبيب لم يشر بكلمة واحدة إلى «الحسرة» أو يحاول الاستفسار عنها، فقال وقد يئس من فهم الطبيب له:

- «ليس الطحال، ولكن زوجتى هى التى يجب أن تستأصل..».

- «وما دخل زوجتك يا رجل؟!».

قال المريض متنهدًا:

- «.. آه.. إنها أصل البلوى كلها.. لا طحال ولا كلام فارغ..».

- «أنت مجنون..».

- «عقلى يوزن بلد.. آه لو سمعت كلامى وصبرت حتى أنتهى منه..».

وفكر الطبيب أن يستدعى التومرجى كى يطرد هذا المريض أو يجره إلى الخارج بعد أن يكتب له على تذكرته «مزيج حديد وزرنيخ» أو أى دواء آخر، لكنه أعاد النظر إلى عينيه المتوسلتين

المغـرورقـتين بالدمـوع، وإلى الحـزن والأسـى اللذين يحطان على سـحنتـه الشـاحبـة، فـوافق على أن يسـتـمع إلى خـرافـات هؤلاء البسطاء، وكلماتهم التى تثير الضحك وتبعث على المرح:

- «هيه.. قل لنا حكاية الحسرة والأمر لله..».

واختطف فـخر الزمـان يد الطبيب وقبلها شاكرًا قبل أن يستدرك الطبيـب الأمر، وتنهد فى ارتياح حتى لكأن مـجرد موافقتـه على الاستماع إليه، شيء يسعده غاية السعادة، ولاحظ الطبيب أنه نظر وراءه قـبل أن يهم بالحـديث ولما تتبـعـه لمح الوجـه المشـرق الغض الفـاتن.. وجـه زوجـتـه يطل من ثغـرة مكسـورة بالزجـاج فى باب العيـادة، كـانت عينـاها الواسعتـان الجميلتـان المحاطتـان بهـالة من الكحل الأسـود، تحـملق فـيه وكـأنها تتـوعـده، فـأشـار إليـها بيـده المعروقة قائلاً:

- «انظر.. إنها تتجسس علىَّ.. الفاجرة..».

وسـرعان مـا بسطت تقلصـات وجهها، وارتسـمت على وجـهها ابتسامة باهتة وهى تقول:

- «عيب يا فخر الزمان.. كفى فضائح..».

ولـم تكمـل حديثهـا فقـد انفتح باب العـيادة فى عنـف وبرز منه رئيس قـسم الجراحة قادمًا، والتـومرجى يفسح له الطريق، لم يعد هناك مـجـال للمـريض كى يبدأ حديثه عن الحسرة التى تتردد على لسانه منذ رآه، ونادى التومرجى كى يحضر مريضًا آخر، ثم قال:

- «يا فخر الزمان . . تحضر بعد أسبوع . . سامع؟!».

- «لكن . . ».

- «لا لكن ولا حاجة . . قل ما شئت في المرة القادمة . . أنا مشغول الآن . . ».

ولمحه الطبيب يخرج مكتئبًا حزينًا، وخطواته البطيئة المتأرجحة تنطق بالضعف والوهن، ويده الخشنة المرتعشة تقبض على التذكرة التي أخذ يحملق فيها، محاولاً أن يفك عقدة رموزها الصعبة، تلك الرموز التي لا يؤمن بها، ولا يثق في جدواها . .

***

الحجرة تمتلئ ثم تفرغ والمرضى يروحون ويجيئون، وروائح العرق الممتزج بالليزول واليود تزكم الأنوف، وصراخ الأطفال الصغار، وسباب الكبار وثورة التومرجي تطن في أذني الطبيب الذي يفحص هذا ثم ينتقل إلى ذاك، في حركة دائبة جعلت العرق يتصبب فوق جبهته على هيئة قنوات صغيرة لامعة قصيرة العمر، وأشعل الطبيب سيجارة، وأخذ ينفخ دخانه في إرهاق وتعب، وعشرات القصص التي يسمعها من المرضى أو يسمع أجزاء مبتورة منها تتساقط، دون أن تثير انفعاله أو تلفت نظره، والدعوات . . لقد ملها لتكرار حدوثها، وأصبحت مثل تلك الدعوات الضارعة التي يصبونها عليه كل لحظة «الله يعلى مراتبك ربنا يخليك . . يطول عمرك . . يستر عرضك . . ينجيك من كل

ضيق . . » . . أصبحت لا معنى لها . . أشياء مكررة . . معادة . . فقدت كل مدلولاتها . . وتأثيرها . .

وتنفس الطبيب الصعداء وهو يرى العيادة أصبحت خاوية ، رغم أن الساعة قد قاربت الثانية بعد الظهر ، وجمع أدواته الخاصة ، وخرج ، وفى الممشى الضيق الممتد من عيادة الجراحة . إلى باب المستشفى ، كانت تجلس صاحبة الوجه الفاتن ، والعينين الواسعتين ، وهى تسند خدها المورد على قبضة يدها ، وإلى جوارها جلس زوجها فخر الزمان وسحنته تنطق بالغضب والثورة والحنق :

- «سوف أدفنك حية . . الصبر طيب يا بنت حسن أبو كرش . . » .

وهى تقبض على كمه وتهزه فى عنف : «انظر لنفسك . . تعيب على الناس وأنت معيبة . . أنت فاكر إنك رجل ؟ ! مصيبة وجاءتنى . . » وأسرع الخطى قبل أن يلمحه فخر الزمان فيتشبث به ، ويرغمه على سماع قصته التى تبدو وكأنها بلا نهاية ، ولكنه وجد نفسه يفكر فى تلك المرأة التى ينطق كل جزء فى جسدها بالأنوثة والحيوية المتدفقة ، ولم يكن يدرى لماذا كان يدعو الله أن تعود مع زوجها فى الأسبوع القادم . .

وعاد فخر الزمان إلى قريته «مزغونة» القريبة من الجيزة ، كان قلبه مليئًا بالسخط على أولئك الأطباء المغرورين الذين لا يؤمنون بغير ما يعتقدون ، ويعتبرون أحاديث المرضى لغوًا لا فائدة منه ، والطحال

المتضخم يشده بثقله إلى الأرض، ويسبب له آلامًا قاسية، ليس أقسى منها سوى ما يحز فى نفسه من قلق وحزن وكراهية للحياة.. ولزوجته.. لكن هل يكره زوجته حقيقة؟ هذا ما يبدو منه!! لكنه تزوجها وهو يحبها.. وقبل أن يدهمه هذا المرض اللعين.. صحيح أنها لم تكن تميل إليه كل الميل، وأنهم أشاعوا عنها أنها.. كانت تود أن تتزوج عنتر - وهو جندى سابق بالجيش. وفلاح قوى الساعد، حسن السمت - لكن كان لا مناص من أن تتزوج من فخر الزمان.. المسألة مسألة بدل، وارتباط عائلى بين كبار العائلتين.. هذه أشياء مر عليها مدة طويلة، وأصبحت فى حكم المنسية، لم يعلق عليها فخر الزمان كثيرًا.. لكن الذى أزعجه هو ما انتابه أخيرًا من شعور بالعجز.. وخاصة تجاه زوجته.. لعنة الله على المرض.. وازداد إحساسه بهذا العجز يومًا بعد يوم.. كانت زوجته تتألق، وكانت نظراته الحارقة الجائعة تجعل روحه تثور فيتمنى لو يحتويها بين ذراعيه ويعتصرها عصرًا.. ويظل يأكل ويشرب من هذا الجمال وينعم به.. ولكن ذلك الشيء المكتوم فى بطنه فى الناحية اليسرى والضعف الذى يحد من أحلامه، ويسحق مباهجه - كل تلك الأشياء كانت تعمق من أساه، وتزيد من ضعفه وأحزانه.. فينام.. ويظل تراوده الهواجس وتعذبه الرؤى المرتبكة المخيفة.

ويستيقظ مذعورًا ويتلفت حوله فيراها.. يرى زوجته تغط فى نوم عميق، والفتنة تصرخ.. فى ملامحها الفتية العطشى.. أحلام ترفعه إلى السماء وضعف يلصقه بالأرض بفراش المرض..

وصــاحـب ذلك كـله لـغط . . لـم يصــادق هوى فى نفس فــخــر الزمان . . فكانت الـضربة القاصـمة لما بقى له من أمل . . بل إن فـخر الزمان عزا إلى هذا اللغط كل ما أصابه من مرض . .

❋❋❋

ثلاثة أيام مرت . . والساعة قاربت الثانية بعد منتصف الليل ، والطبيب الجراح يجلس فى حجرة «استقبال الحوادث» والنوم يغالبه تارة ، ويغلبه تارة أخرى ، والممرضة التى تجلس قبالته هى الأخرى قد انحنت فوق ظهر مقعد أمامها وأنفاسها تنبعث رتيبة حتى لكأنها نائمة ، والسكون يخيم على المستشفى ، ويغرقها فى بحر من الليل والصمت ، وتناهى إلى أسماعهما صوت الأجراس المعهودة - أجراس عربة الإسعاف - التى تأتى فى أى وقت من الليل أو النهار حاملة الجرحى أو المرضى فى حالة خطرة . .

وهبت الممرضة فزعة . . وهز الطبيب رأسه :

- «ما يزعجك؟» .

- «لا شىء . . إن أجراس عربة الإسعاف أسمعها من بعيد . . لدى حساسية شديدة بالنسبة لها . . النوم ثقيل على أجفانى لدرجة فظيعة» .

كان المريض الذى حمله رجال الإسعاف إلى حجرة الاستقبال يتقيأ دمًا ، لكنه كان متماسكًا وفى حالة وعى تام ، وعندما رأى الطبيب ذلك قال للممرضة :

- «لابد من إدخاله المستشفى . . هكذا دائمًا حالات النزف الحاد . . ثم إنه يحتاج إلى نقل دم . . وملاحظة دقيقة حتى الصباح».

والتفت إليه الطبيب قائلاً :

- «اسمك؟».

- «فخر الزمان عبد المجيد يا بيه . . أهكذا تنسانى بسرعة؟! ألم أقل لك إن الحسرة سوف تقضى علىّ . . الحسرة هى التى جعلتنى أتقيأ دمًا . . الأمر لله يا بيه . . ».

والتفت إليه الطبيب فى اهتمام، كان وجهه قد ازداد شحوبًا وعيناه يفتحهما فى صعوبة ظاهرة :

- «والله سأموت محسورًا يا بيه . . منها لله . . ».

وقال الطبيب للمرضة :

- «إنه نزيف من المعدة ناتج عن تضخم فى الطحال والكبد . . ».

وتدخل المريض وقال مهتاجًا :

- «لا تذكر الطحال مرة أخرى . . » كل واحد فى «مزغونة»، يعرف أنى محسور . . الفلاحون لا يتكلمون إلا عنى وعنها وعنه . . شىء مخجل ويقصر العمر يا دكتور . . امرأتى . . امرأتى إنها زوجة فخر الزمان . . تحب عنتر . . وتجلس معه تحت شجرة التوت . . وتضحك له ويضحك لها . . أصله ثور . . عادت إلىّ

بالأمس بعد العشاء.. أين كنت؟ قالت بتبجح: كنت عند عنتر وافعل ما شئت.. دمي فار.. وغلي.. أشياء كالمطارق كانت تدق في رأسي.. وغشاوة انسدلت كسحابة فوق عيني حتى لم أعد أرى.. بحثت عن فأس.. عن سكين عن أى شيء لأقتلها.. لم أجد.. فوثبت إلى عنقها وقبضت عليه بكل قوتي. كنت أغرز أصابعي في عنقها البض.. صرخت بأعلى صوتها ثم دفعتني.. فوقعت.. أتعلم؟ شيء فظيع أن يقع رجل على ظهره.. أن تهزمه امرأة.. ورأيت في عينيها شراً وحقداً هائلين.. ثم هربت من البيت، وانتابتني نوبة بكاء.. يا للمهزلة.. أيبكي فخر الزمان؟ ثم تقيأت على الفور.. دماً أحمر. هي السبب.. هي وهو سبب الحسرة.. هل صدقت الآن يا دكتور.. ليتك سمعت كلامي في المرة السابقة لو فعلت لما حدث كل ذلك..».

كان الطبيب والممرضة منهمكين في إعداد الإسعافات الأولية، حقن الكالسيوم، و.. إلخ.. لابد أن يقف النزف.. وانسكاب الدم لا ينقطع وثرثرة فخر الزمان لا تكف.. إنسان بين الحياة والموت يريد أن يقول كل شيء.. وحينما كان الفجر على الأبواب انتهى أمر الإسعافات، ونقل فخر الزمان إلى عنبر الجراحة، وآوى الطبيب إلى سكن الأطباء كي يستريح ساعتين أو ثلاثًا، لكنه لم ينسَ أن يكتب كل ما يلزم فخر الزمان على ورقة العلاج..

***

وشعر الطبيب بيد تهزه برفق، وفتح عينيه، الشمس كالعادة تملأ المكان بنورها وشلال الضوء يتدفق من النافذة والتومرجي يقف ممسكًا بيده أوراقًا . .

- ماذا؟».

- «شهادة وفاة يا دكتور . . ».

- «يافتاح يا عليم . . من؟».

- «مريض دخل المستشفى ليلة أمس اسمه فخر الزمان عبد المجيد . . ».

بقية من النوم لم تزل عالقة فى أهداب الطبيب، وإنهاك السهر يحيط بعينيه بهالة زرقاء، وأشباح كثيرة مهزوزة تمر بذاكرته المتعبة وعقد من الكارم الأصفر يزين نحرها، ورجل شاحب نحيل منتفخ البطن، يثرثر كثيرًا وملامحه تنطق بالأسى والبؤس، ولا يعتبر البلهارسيا أو تضخم الطحال مرضًا، وقال الممرض الواقف بجوار سرير الطبيب :

- «ماذا تكتب فى تشخيص المرض يا دكتور؟».

وبدون وعى أو تفكير قال الطبيب :

- «الحسرة . . ».

فضحك الممرض قائلاً :

- «لم تزل تحلم يا دكتور . . يجب أن تصحو . . الساعة التاسعة صباحًا الآن، وأهل المريض يثيرون الفوضى فى المستشفى».

فقال الطبيب مستدركًا:

- «نزيف من المعدة هذا هو التشخيص.. مع تضخم فى الطحال.. وبلهارسيا..».

***

كان الطبيب كالعادة يقطع الممشى الذى يصل مسكن الأطباء بالعيادة الخارجية فى خطوات عجلى، لا يلتفت كثيرًا إلى الواقفين فى الطريق، أو يلقى بالاً إلى الصراخ والعويل الذى ينبثق من أفواه الثكالى.. أو الذين فقدوا عزيزًا لديهم، ولدى باب المستشفى لفت نظره امرأة غارقة فى ملابسها السوداء تعفر وجهها بالتراب، وتلطخه بالطين، وتصرخ من الأعماق..

- «آه يا فخر الزمان.. يا جملى.. ما كان يومك يا حبيبى..».

وكانت كلمة حبيبى كالنغمة النشاز فى أذن الطبيب..

تمت

***



الهيكل

كان أمامي مشكلة عويصة جداً؛ لأن حلها على الوجه المرضى سوف يكلفنى ما يقرب من ثلاثة جنيهات، ومثل هذا المبلغ قد تنوء به مالية أبى الفقير، ولأن هذه المالية لم يبقَ منها إلا القليل جداً بحيث أصبح مستقبل العائلة التى يربو عددها على العشرة أفراد مهدداً بالخطر طوال العام الحالى. . وهل أنسى ما تكبده أبى من جراء شراء الكتب الجامعية والبدلة وأقساط الكلية ومصروفات السكن والمأكل وباقى الأشياء الضرورية لى؟!

أما المشكلة الجديدة التى أعنيها فهى الحصول على هيكل عظمى كامل للإنسان؛ لأن دراسة التشريح وما يلحق بها من دراسات أخرى فى كلية الطب تحتم علىّ الحصول على هذا الهيكل الذى سوف يكلفنى كما قلت ما يقرب من ثلاثة جنيهات أو تزيد، وفى ذلك ما فيه من إرهاق وتبذير، رغم أنه ضرورة ملحة. . وفكرت فى الذهاب إلى مقابر الإمام الشافعى للحصول على هذا الطلب من حراس المقابر، لكن تنفيذ هذه الخطة أمر محرج ومحاط بالأخطار فأنا لا أعرف أحداً هناك، ولم يسبق لى الذهاب إلى هذا المكان، وقد ينكشف أمرى فى الطريق فأتعرض لنقمة السابلة أو استفسارات البوليس، وأنا كما يقولون «لخمة» وأغرق فى شبر ماء، ويغمرنى عرق الخجل والخوف كلما ألمت بى ورطة ولو بسيطة.

وتذكرت أن إجازة نصف السنة وشيكة الحلول، وأقنعت نفسى بأنى قد أخذت بغيتى فى مقابر قريتنا الصغيرة، وخاصة أن «غالب» حارس القبور هناك على صلة وثيقة بى ولن يردنى خائبًا إذا ما طلبت منه «الهيكل»، ولا شك أنى سوف أبرز له علبة سجاير هوليود وأشفعها بمبلغ خمسة قروش، وهذا كسب قد لا يحلم به غالب المسكين، فضلاً عن أن ذلك لن يكلفنى فى مجموعه أكثر من عشرة قروش وسينتهى الموضوع بهدوء وكتمان دون أن يشعر به أحد، وسأتجنب أنا كثيرًا من الحرج، والخطر الذى كان سيصادفنى حتمًا إذا ما ذهبت إلى مقابر الإمام الشافعى بالقاهرة . .

وراقتنى الفكرة، ووجدت فيها حلاً موفقًا تفتق عنه ذهنى النير الصافى فى لحظة من لحظات التجلى والإلهام، والحاجة تفتق الحيلة، وافتر ثغرى عن ابتسامة مريضة وأنا أفكر فى نوع الهيكل الذى سوف أحصل عليه، هل هو هيكل أنثى أم ذكر، طفل أم رجل متوسط العمر، وبالغت فى أوهامى وأحلامى عندما همست لنفسى قائلاً: «إنها فرصة طيبة . . إن العائلات الكبيرة - فى قريتنا - التى تباهى بثرائها ومكانتها الاجتماعية المرموقة سيكون موتاهم تحت تصرفى . . قد أستطيع الحصول على هيكل فريد أبو حسين - الله يرحمه - فقد كان متعجرفًا طاغية أرهق أبى فى استئجار الأرض وقسا عليه دون شفقة . . أم أن الأفضل أن آخذ هيكل موسى ربيع ذلك السفاك الذى كانت أحداثه المريعة تهز المنطقة كلها وكان تربصه للأبرياء وغدارته فى يمينه تحت جنح الليل مقابل دراهم

معدودة عملاً آلياً يؤدّيه ببساطة عجيبة . . لا . . لا إن المرابى أحمد عيسوى رفض أن يعطى أبى مبلغ ثلاثين جنيهًا بفائدة عشرين فى المائة وطلب المزيد . . وأرغمنا على القبول . . إنه جدير بالانتقام . . أليس كذلك؟!

كان عدد الذين أريد الانتقام منهم من الموتى كثيرًا . . وكان علىّ أن أختار ما أشاء . ستكون عظامهم المفككة ملقاة أمامى فى حقيبة رثة حقيرة ، أو سلة قذرة يأنف منها الذوق السليم ، وسأمسك هذه العظام وأرمقها بنظرات شذراء وأخطط عليها بالقلم والألوان وأكتب عليها بعض الكلمات . . وسيكون حديث الجبروت والسطو والعنجهية الذى ميز أصحابها يومًا على سائر عباد الله . . حلمًا عابرًا ، وذكرى ذهبت مع الريح . . ما أتفه الحياة!! لقد قهرونا أحياء فلا أقل من أن نقتص منهم موتى . . وبالطبع سأوصى «غالب» ألا يمس أحدًا من موتى أسرتنا ، وألا يقترب من أصحاب الذكريات العطرة وأهل العلم والصلاح ، ومن كان لهم بى علاقة طيبة يومًا ما فى غابر الزمن .

ألم أقل أنها فكرة لذيذة فيها قليل من المغامرة التى لم أجربها ، وفيها إرضاء لنزعة الانتقام والاعتداء على أولئك الذين أساءوا إلىّ أو جرحوا شعورى أو ساروا بيننا فى كبرياء متفشة؟!

وعدت إلى تصوّر «غالب» وهو يحمل إلىّ الهيكل فى جوال تحت جنح «الظلام» ويدلف به إلى بيتنا ، فأتناوله منه وأنظفه وأحسن

ترتيبه بين فزع إخوتى الصغار، ودهشة أبى الممتزجة بالإعجاب، وفرار أمى التى لا تطيق مجرد رؤية عظام الموتى فى بيتنا . .

وشعرت بالزهو والسرور يغمران قلبى وأنا أستعرض هذه الخواطر الممتعة العجيبة .

***

وجاءت إجازة نصف السنة ، فيممت وجهى شطر قريتنا ، ولم أكد أقترب منها حتى وقع بصرى على بيت المرحوم - أو المجرم - فريد بك أبو حسين ، فلمحت ابنه المدرس يقف فى غطرسة وكبرياء ورثهما عن أبيه ، وحينما ألقيت عليه السلام رد على التحية بفتور واستعلاء حتى لكأن مجىء طالب الطب الوحيد فى القرية الصغيرة بعد غيبة شهور عنها لا يكاد يدفعه إلى شىء من الترحاب أو البشر المصطنع ، فتذكرت على التو فعال أبيه وغمغمت بينى وبين نفسى -وقد احتقن وجهى- بتلك الجملة التقليدية التى نهتف بها فى مظاهرات : «غدًا يوم الفصل يا جبناء» ولم أكن أعنى بذلك إلا أنى سوف أحصل على هيكل أبيه مهما كان الأمر ، متناسيًا أن قبر فريد بك أبو حسين متين البنيان قوى التحصين ليس من السهل النفاذ إليه . . وأما باب بيتنا المتواضع فكان يقف فى انتظارى أبى بجلبابه البلدى وإشراقة وجهه السمح وأمى وفى عينيها دموع الفرح وبهجة اللقاء ، أما إخوتى الصغار فقد هرعوا إلىَّ يتلقفونى ويغمرونى بقبلاتهم قبل أن أصل باب البيت ، وهكذا

أصبحت محاطًا بسيل من الدعوات وعبارات الترحيب والتقدير والانشراح، لكن كان طيف الهيكل بصورته المعروفة وأضلاعه العارية، وفجواته المنبثة في الوجه والجمجمة لا يكاد يفارق خيالى، ومن عجيب المصادفات أنى لم أكد أستريح ساعة أو بعض ساعة حتى جاءت جارتنا العقيم «مسعدة» وصافحتنى ثم قالت وهى فى ارتباك وتلعثم:

- «صحيح يا ابنى عندك عضم ميتين..؟».

- «لماذا يا ست مسعدة؟ خير إن شاء الله».

فاستحيت أن تجيب وأدارت وجهها بعيدًا عنى فى خجل، بينما تطوعت أمى بالإجابة قائلة:

- «يقولون يا ابنى إن من تخطو فوق العظم سبع مرات تنفك عقدتها».

- «يعنى؟».

- «يعنى ربنا يكرمها وتحمل..».

وحاولت جاهدًا أن أمحو هذه الخرافات من ذهن مسعدة ومن ذهن أمى بكل ما أوتيت من قوة، مستعينًا بشتى البراهين والتوضيحات، لكن مسعدة قالت فى تأثر:

- «واضح أنك لا تريد أن تخدمنى..».

- «يا ستى هذا كلام فارغ..».

فتدخلت أمى قائلة :

- «يا حبيبى هذه أشياء مجربة . . ».

وضربت لى عشرات الأمثلة . . على صدق دعواها هى ومسعدة، فقلت يائسًا :

- «بعد أسبوع تجدين العضم عندى . . وستخطين فوقه سبعين مرة . . ».

فخرجت مسعدة وهى تلهج بالدعاء الصادق، وأمى تودعها قائلة :

- «أى خدمة يا مسعدة . . عيوننا لك يا حبيبتى . . ربنا يجود عليك . . ».

***

حينما استقبلت غالب فى اليوم التالى لاحظت فى عينيه شيئًا من التوجس والريبة والتساؤل، نظرًا لما استقبلته به من حفاوة زائدة، وتكريم بالغ لم يألفه على هذه الصورة من قبل، وازدادت حيرته عندما أشعلت له سيجارة بعد أن صببت له القهوة، واحتسى غالب من فنجان القهوة جرعتين ثم جذب نفسًا من السيجارة، وقد شعر بقليل من الاطمئنان والهدوء لهذا قال :

- يا سلام يا دكتور . . أبوك حبيبى من زمان . . الله يعمر بيتك . .

- وطبعًا . . طبعًا كلنا إخوة يا عم غالب . . ».

كان غالب مستطيل الوجه، كبير الأنف، وكان أنفه هذا يذكرني دائمًا بمدمني الأفيون.. لست أدرى لماذا.. أما عوده الفارع فقد كان ينحنى إلى الأمام قليلاً، وأما عيناه فقد كانتا جاحظتين دائمًا أشبه ما تكونان بمرضى الغدة الدرقية التى ألمنا بأطراف منها فى دروسنا، وكنا ونحن أطفال نخاف من غالب خوفًا شديدًا لأن اسمه وسمته يحضران إلى الذهن.. الموت.. والقبور.. والأكفان والجيف والعظام والأحزان، وما زال ذلك الخوف القديم يتسرب إلى نفسى حتى تلك اللحظة؛ لأنه أصبح جزءًا لا يتجزأ من غالب.

تحسست علبة «سجاير الهوليود» التى أضعها فى جيبى، وتيقنت من وجود الخمسة قروش معها، ثم تذكرت ما قاله لى أحد أصدقائى الخلص ونحن بمعرض الحديث عن الهيكل: «.. سجاير وفلوس!! غالب يبيع والده.. الفلوس تعمل المستحيل يا حبيبى» تذكرت ما قاله صديقى، فارتسم الجد على وجهى، ونظرت إلى غالب وهو يحتسى القهوة وينفخ الدخان فى جو الحجرة، فانتهزت ساعة الانسجام هذه وقلت:

- «اسمع يا غالب..».

- «مليون نعم يا ابن الناس الأمرا..».

- «أريد منك خدمة بسيطة..».

- «رقبتى لك.. اطلب تجدنى تحت رجليك..».

وصمت أنا برهة، وغالب أثناء ذلك فى لهفة لما سأقوله:

- «أخاف أن تكسفنى يا غالب..».

- «عيب يا بيه.. لا تقل هذا الكلام..».

- «طيب.. أريد رجلاً.. رجلاً بكامله..».

- «إيه..؟؟».

- «نعم رجل عضم لأذاكر عليه فى الكلية..».

فقال غالب فى اندهاش:

- «من القبور؟!».

- «طبعًا.. وماذا فى ذلك؟».

- «يا خبر أسود. تريد أن تخرب بيتى.. وترمينى فى جهنم..؟».

وألقيت أمامه بعلبة السجاير، والقطعة الفضية ذات الخمسة قروش.

- «خذ لتصلح مزاجك.. خذ يا رجل وصلِّ على النبى؟».

لكن يد غالب لم تمتد إلى شىء بل على العكس وضع فنجان القهوة على المنضدة وسقط عقب السيجارة من بين أصابعه، وغمغم:

- «أعوذ بالله.. أسرق ميتين؟ الناس كانت تفضحنى.. الموتى لهم حرمة.. وربنا أمر بالستر..».

فقلت فى حدة:

- «ما هذا الكلام الذى تقوله؟ العلم من الدين.. هل سألعب بالعضم أم أذاكر عليه؟».

فرد فى اضطراب:

- «أترضى أن يفعل أحد هكذا فى موتاكم؟».

- ولم لا..؟.

- «اعمل معروفًا لأكون بعيدًا عن هذه البلوى أنا أتسول ولا أفعل ذلك.. أين أهرب من الناس ومن ربنا؟؟.. عن إذنك».

وخرج غالب تاركًا فنجان القهوة ممتلئًا إلى النصف حتى السيجارة لم يكملها، أما علبة السجاير والقطعة الفضية فقد بقيا كما هما، وخيل إلىّ أنهما يسخران منى ومن أحلامى وخطتى التى قضى عليها، من جزاء غباء غالب، وانصياعه لمعتقدات وأوهام تافهة، ووقوعه تحت سلطان تقاليد بالية ليس من السهل دفعه إلى تجاهلها.. إذن لا مناص من أن «أكع» الثلاثة جنيهات وأدفعها لفراش المشرحة حتى يعطينى الهيكل الذى أريده..

وعدت أسخر من نفسى وأنا أذكر هيكل الطاغية فريد بك أبو حسين، أو السفاك مرسى ربيع أو المرابى أحمد عيسوى، أهكذا أهزم بهذه السرعة وعلى هذه الصورة.. لعنة الله عليك يا غالب..!!

كلا.. لن أستسلم إن أمامى طريقة أخرى..

لم أقصدها بادئ ذى بدء . . إن «نوح بن غالب» شاب سهل الانقياد، ويمتاز بقسط لا بأس به من البلاهة والسذاجة مع أنه قد جاوز السابعة عشر من عمره، ولهذا يسمونه نوح الأهبل، وكانت الخمسة قروش وحدها كفيلة بأن تجعله يوافق على ما أردت، لكنى نصحته بألا يخبر أباه بشيء على الإطلاق وإلا ذبحه كما تذبح الشاة، ونوح كان يخاف منه خوفًا شديدًا، وكان علىّ أن أرسم الخطة لنوح كاملة حتى لا يتورط، ويورطنى معه، واتفقنا على أن يأخذ معه جوالاً فى النهار ويتسلل إلى إحدى المقابر . . أية مقبرة . . ويضع فيه هيكلاً كاملاً جافًا قديمًا . . ثم يحضر الجوال خفية بعد أن يشمل الظلام القرية . .

***

ليل القرية هادئ ساكن كأنه هيكل مقدس تنبعث فى ساحته الرحيبة ترانيم خافتة غامضة، وبيوت القرية تجثم كالقبور فى دعة وصمت لا يشوبه إلا نباح كلب أو مواء قطة، أو صيحة طائر من آن لآخر.

وفى وسط الظلمة يخطو نوح فى حيطة وحذر غريزين حاملاً الجوال على كتفه، وصوت يشق الظلام:

- «من أنت؟».

فترتعد فرائص نوح، وترتعش مفاصله وتتراخى قبضته عن الجوال فيسقط من خلفه محدثًا صوتًا مميزًا متحشرجًا، فيصيح الخفير مرة ثانية:

- «من أنت؟ . . انطلق يا بنى آدم».

فيرد نوح فى ذلة وخوف:

- «أنا نوح. . ».

- «تكلم يا حمار . . ماذا هناك».

وأقبل عليه الخفير فى توجس واستطلاع، ورمق الجوال الملقى جانبًا وهمس فى استغراب:

- «سارق إيه يا ولد يا نوح؟؟».

- «أبدًا والله دا. . ».

- «إيه . . انطق. . ».

- «عضم. . ».

وندت عن الخفير صيحة رعب وهو يفتح الجوال فيصطدم بمرأى الجمجمة والعظام وانطلق ينفخ فى صفارته بجنون ورعونة. .

فى الصباح كان غالب يبكى أمام دوار العمدة، وكان ابنه نوح مربوط اليدين والقدمين وملقى فى الشمس فى فناء الدوار، والهمسات تدور على الأفواه:

- «غالب وابنه يبيعون الأموات. . ».

- «وأيضًا يسرقون الأكفان. . ».

- «قليل الذمة وضلالى. . ».

- «أعوذ بالله . . كافر وقليل الدين . . ».

- «العمدة سيخرب بيته . . ».

أما ابن فريد بك أبو حسين فقد كان يقول :

- «الله يجازى من تسبب فى كل هذا . . ما ذنب نوح ، إنه عبيط . . ».

وكان وقع الحادث إليمًا جداً فى قريتنا ، وأخذت الشائعات تدور حولى بصورة مشوهة ، وزعموا أننى كنت أشرح كل ميت جديد فى الأيام السابقة مما دفع بعض الأهالى إلى فتح قبورهم والتأكد من سلامة موتاهم . . فلم أجد مناصًا من السفر فى اليوم التالى ومعى الثلاثة جنيهات حتى أبعد عن هذا الجو الخانق المتعب ، لكن جارتنا مسعدة - بالرغم من كل ما حدث كانت غاضبة منى لأننى لم أتح لها الفرصة كى تشفى من عقمها ، وذلك بأن تخطو فوق العظم سبع مرات .

تمت

***



الحب الصغير

كانت الحجرة التى نسكنها نحن الثلاثة عثمان وسميح وأنا - خافتة الضوء دائمًا، وكانت نافذتها الغربية الصغيرة ذات القضبان المتقاطعة الصدئة، عديمة الجدوى؛ إذ إن واحدًا من أكشاك الحراسة يقف حائلاً بينها وبين تدفق الضوء، وبالرغم من هذا فإن ذلك الضوء لم يكن يزعجنا كثيرًا، ربما كان له أثر سيئ بالنسبة لعيوننا خاصة، ونفوسنا التى كانت تتململ فى ضيق وكان ذلك الظلام يطبق عليها ويكاد يخنقها.

بقينا فى هذه الزنزانة عامين كاملين- أى منذ صدرت الأحكام بسجننا فى قضية سياسية فى وزارة صدقى باشا الأخيرة:

عثمان ثلاث سنوات وسميح خمس سنوات وأنا ثلاث سنوات، ونظرًا لأن القضية تمس الحكم الملكى مباشرة فقد كان الأمل بعيدًا فى أن يفرج عنا قبل انتهاء المدة.

شىء ما كان يتألق فى عينى سميح..

هذا الشىء أسبغ عليه رونقًا بهيًا، وأمده بطاقة هائلة من النشاط والقوة، فلم يكترث لما نقاسيه من حرمان، أو نعانيه من عذاب، يستقبل كل ما يحدث لنا من منغصات بابتسامة مشرقة نابضة بالأمل والحياة والسعادة، ففى الصباح يخرج معنا فى الطابور الطويل

الأزرق الذى يسير فى ذلة وألم نحو الجبل . . طابور من المساجين ذوى اللحى الكثة والوجوه المغبرة الشاحبة . ويمشى سميح فى الطابور دون أن يرتسم على جبينه لمحة من شقاء، أو سمة من سمات النفور والغضاضة . . وفى الجبل يحمل معوله، مشمراً عن ساعده الأسمر المفتول، الغزير الشعر، ويهوى على الصخر الصلد يكسره فى عزيمة لا تفتر، ونشاط لا يكل، فإذا ما جاء الطعام - كمية قليلة من الفول المدمس، ورغيف يميل لونه إلى السمرة - انكب على الطعام فى نهم وشهية قوية فلا يترك حتى الفتات . .

وعندما يعود الطابور الأزرق فى المساء، منحدراً من الجبل صوب «الليمان»، يدق سميح الأرض بخطواته القوية الثابتة دون إنهاك أو كلال، ثم يضع نفسه تحت ماء الدش البارد، ويعود إلى زنزانته أكثر ما يكون إشراقًا ونشاطًا . . ثم يدلف من الباب الضيق، ويجيل النظر فى أنحاء الحجرة الشحيحة الضوء، ويتطلع إلى دلو ماء الشرب الملقى فى ركن، وإلى «الأبراش» الثلاثة المتراصة بجوار الحائط الغربى، ويزحف ببصره إلى النافذة الصغيرة ذات القضبان الصدئة المتقاطعة، ثم يتفحص وجهى الساخط ووجه عثمان المتغضن المجهد، ويتفجر ضاحكًا وهو يقول :

- «مساء الخير يا رجال . . طابت ليلتكما . . فيم تفكران؟ إن السجن وحده كاف لأن يزعجنا، أما أن نضيف إليه آلام اليأس، ومرارة الضيق بما نحن فيه، فهذا أمر لا يحتمل . . هيا نغنى، بى ظمأ إلى الاستمتاع والمرح والغناء . . حتى الرقص . . أحس أن

خصرى يتحرك. . يتثنى على الرغم منى. . لماذا تصمتون هكذا. . تكلموا. . يجب أن نستمتع بكل شىء. . حتى بأيام السجن الكئيبة المظلمة. . ».

فأقاطعه قائلاً:

- «الغناء فى الزنزانة لا يطرب ما دام للقيود التى فى أرجلنا صليل مخيف مزعج. . هذه الأنغام النشاز تؤرق علينا حياتنا. . ».

ويقول عثمان فى غير قليل من الضيق:

- «دعنا يا سميح نسترح من عناء العمل الشاق فى الجبل طول النهار. . أحس بما يشبه المناشير يقطع فى مفاصلى. . أرواحنا وأجسادنا مثقلة بالكثير من الآلام. . ».

فيصرخ منتشيًا:

- «لأنكم أغبياء». .

- «. . . . . .».

- «ألستم رجالاً؟. . خبرونى ماذا أفعل بعد أن يفرج عنكما، وأصبح وحيدًا عامين كاملين. . ».

وصمت فترة. . وغمغم لنفسه:

«أصبح وحيدًا»؟ لا. . لا. . هذا هراء إنها معى دائمًا فى الصباح والمساء. . معى فى الجبل بشمسه المحرقة الساطعة التى تغشى العيون، ومعى فى الطريق الممتد من الجبل إلى الليمان حيث

التراب المثار، والخطوات الذليلة، والسحنات الكئيبة الحزينة. . ومعى هنا فى زنزانتنا المقرورة ذات الضوء المحتضر. . دائمًا معى. . أيها الصديقان. . ألم تجربا الحب. . مثلى. . امرأة جميلة مثيرة كالجنة تمامًا. . كالحرية الحلوة. . تنتظرنى فى الخارج وتؤمن بى وبكفاحى، وعندما تفتح لى أبواب السجن فى نهاية العام الخامس سوف أجد ذراعيها مفتوحتين لاستقبالى. . وهناك. . هناك أطمئن إلى صدرها الدافئ الحنون. . وأنام. . فى دعة ونشوة وسعادة ولا أصحو إلا على أناملها الرقيقة الطرية تعبث فى شعر رأسى، ثم تهزنى فى رفق، فأصحو. . لأعيش فى حلم جديد. . ».

فيرد عليه عثمان ساخرًا:

- «لا تنسَ أنك حليق الشعر. . وعندما تقع يد حبيبتك على رأسك يوم الإفراج ستجده أصلع. . » مثل رجل فى الأربعين تمامًا. . ».

وانطلقت من الأفواه الثلاثة ضحكات عالية، وتعليقات مختلطة تجمع بين النكات البريئة والتعليقات الساخرة، ويقطع عليهم جو المرح صوت السجان وهو يضرب بيده الغليظة على باب الزنزانة المغلقة:

- «لا داعى للضوضاء وإلا أخطرت الضابط النوبتجى بشغبكم».

ويسود السكون، وتنطبق الشفاه على ضحكات ناقصة لم يكمل انطلاقها بعد، وتعود إلى وجهى ووجه عثمان مسحة الحزن

والأسى والحرمان، وتمور فى قلبينا مشاعر الحنين والغربة والضياع، أما سميح فيظل يلف ويدور فى أرجاء الزنزانة الضيقة، والسلاسل التي تقيد رجليه لها صوت مميز وهو يجرجرها خلفه فوق بلاط الأرض، ورأسه مرفوع، وصفحة وجهه الفتى تشرئب نحو النافذة الصغيرة، وعيناه المشرقتان تنظران إلى بعيد. . بعيد جداً، والضوء المحتضر يلقى على ملامحه إشعاعات أقرب ما تكون إلى ضوء القمر، وفى قلبه - لا شك - عشرات الآمال والأحلام التى تعبر عنها أساريره، وصورة فتاته التى يحبها تملأ عليه جو المكان فلا يفكر إلا فيها، ولا يحلم إلا بها، هل كان كذلك قبل أن يدخل السجن؟ إننى أشك فى ذلك كثيرًا. . لا أنكر أنه كان يحبها حباً جماً، لكن لم يكن على هذه الصورة، قد يكون لهذا الجو العابس الغريب أثر بعيد المدى فى تعميق أحاسيسه، وإرهاف مشاعره. . ربما. . ربما. . وفى السجن أشياء كثيرة عجيبة، لم أستطع فى معظم الأحوال أن أفهم لها مدلولاً واضحًا صريحًا. .

دقائق قليلة أغلقت بعدها جميع أبواب الزنازين، وتراصت القبور الصغيرة متجاورة فى صمت مؤلم. . صمت يشبه الموت، وأصبح فناء السجن الكبير ولا أحد فيه سوى شرطى حراسة ينقل خطاه فى تكاسل وبطء، وخفتت الأصوات أو كادت، وارتمت الأجساد المجهدة - التى أضناها عمل اليوم الشاق بالجبل - فوق أبراشها الخشنة الجافية الملمس، أما سميح فقد قصد ركن الزنزانة - خلف الباب - ونبش الأرض، حتى بلغت أصابعه حجرًا ضيقًا كان

قد أغلق فوهته بقطعة من الصابون، واستخرج لفة ورق صغيرة، ثم فردها فبدت أمامه صورة شمسية لها.. لفتاته.. وصورة أخرى عليها رسم زهرة حمراء.. زهرة «البانسيه».

وقال عثمان ساخراً:

- «آن أوان صلاة المساء.. الناس يستقبلون القبلة ويصلون ركعات لله كى يرضى عنهم ويكتب لهم الخلاص.. وأنت يا سميح.. تضع صورتها أمامك وتظل تتبتل إليها وتناجيها وكأنها إله صغير تجسد فى صورة.. لكم أتمنى أن يدهمك السجانون فى حملة من حملاتهم التفتيشية ويضبطونك متلبسًا بحيازة هذه «الممنوعات» ثم يجردونك منها، ويحملونك إلى التأديب»..

وبدا سميح وكأنه لا يعى تمامًا ما يقوله عثمان، كان مستغرقًا تمام الاستغراق فى النظر إلى الصورة.. وإلى الزهرة.. وذهنه يطير إلى بعيد.. إلى حى من أحياء القاهرة، تنام فيه فتاته، تحلم - لا شك - بفتاها، وتفكر فيه، وتنتظر على أحر من الجمر يوم الخلاص يوم العودة.. وقال سميح فجأة:

- «والآن هل تعرفان ما ترمز إليه زهرة البانسيه أيها الصديقان؟ إن كلية الحقوق لم تعلمنا غير بنود القانون الجافة التى تبعث على السأم، ولم تثر فى نفوسنا غير أحلام الحرية بتكاليفها وآلامها وسجونها.. لكن زهرة البانسيه لم ترد فى أى نص من النصوص..».

فقلت ساخرًا وقد ضقت ذرعًا بانكبابه على تلك الأوراق :

- «زهرة البانسيه لا وجود لها إلا فى أذهان المراهقين والمحرومين الذين يفرون من الواقع المرير وآلامه . . باسم الحب . . » .

- «كذبت . . إنها رمز خالد . . معناها أنها تذكرنى . . تفكر فىَّ ولا تنسانى . . وستظل وفية ومخلصة . . أخلد من الرموز السياسية التى تعلمناها عند انضمامنا إلى الثورة . . » .

ولم يستطع عثمان السكوت ، فقد فاض به الغضب ، ولم يقبل بأية حال من الأحوال أن يتعرض سميح لكفاحهم بالغمز والسخرية ، وصاح حانقًا :

- «هذا هراء . . لا تهرف بما لا تعى . . » .

فابتسم سميح فى وداعة وقال :

- «هون عليك يا صديقى . . أتظن أننا دخلنا السجن بعد أن ثرنا على صدقى باشا والإنجليز من أجل السياسة . . لا . . لا . . من أجل الحب» . .

- «الحب؟» .

- «أجل . . أحببنا وطننا فثرنا من أجله . . وأحببنا الناس فأردنا خلاصهم من العذاب . . وأحببنا فتياتنا الجميلات فلم نشأ أن نلقى بهم مرة أخرى فى شوارع القاهرة حيث الحرب والغارات والخوف

والضياع.. وهوان الكرامة.. هل فهمت؟ معركتنا إذن معركة حب كبير..».

ولم يجب عثمان.. وآثرت أنا الصمت، وتركنا سميح يدقق النظر في صورة حبيبته وفي زهرة البانسيه، وكانت الشمس قد غربت، وأخذ الظلام يزحف بسرعة واستلقينا نحن الثلاثة على ظهورنا، ونام كل شيء من حولنا، ولم يعد يزعجنا سوى نحنحات السجان - خفير الليل - الذى يرتطم حذاؤه ببلاط المشاة في غدوه ورواحه، ثم تلك السعلات التي تتدفق من صدور سقيمة في الزنازين المجاورة.

وذات صباح كان الجبل مثل خلية النحل، والمساجين كل خمسة يتكلمون في وقت واحد، لقد حدثت تغييرات وزارية مهمة، فراود الأمل القتلة والمجرمين العائدين وأصحاب قضايا المخدرات واللصوص.. ونحن الثلاثة أيضًا، الأمل لا يموت في السجن، حتى في أحلك الأوقات.. وعند انحدارنا من الجبل - ضمن الطابور الأزرق الطويل - كانت هناك فرحة غامرة ينطق بها وجه كل مسجون.. فرحة قد يكون أساسها الوهم المجرد.. وانتقلت عدوى الفرح إلينا نحن أيضًا.. وإن كنا أجدر بها من غيرنا.. إنسان واحد بقى كئيبًا حزينًا.. ولأول مرة نرى سميح وقد اختنق التألق الذى ظل طويلاً ينبعث من عينيه.. وتموت الابتسامة فوق شفتيه، ويبدو وجهه مغبرًا كئيبًا شاحبًا.. والسلاسل في رجليه

أمست ثقيلة مربكة، وبدا صليلها وكأنه رجل فى الأربعين، وحينما وصلنا إلى السجن، لم يكلف نفسه مشقة الذهاب إلى الحمام كالمعتاد، بل دلف - فى خطوات كليلة - إلى زنزانتنا ذات الضوء المحتضر، ثم ألقى بجسده المكدود فوق كومة «الأبراش والبطاطين». . ونظراته شاردة إلى بعيد، وطال الصمت، وأحسست بالظلام والصمت يكتمان أنفاسى، فهتفت فى قلق:

- ماذا حدث؟

- «كنت فى زيارة اليوم».

- «أبلغتك أنباء سيئة عن أسرتك؟ . .».

- «كلا . .».

- «ماذا إذن؟».

فالتفت سميح إلى ركن قصى، إلى حيث يمتد حجر ضيق خلف باب الزنزانة يتلوى كجحر الأفعى، وغامت عيناه بالدموع، وقال فى صوت مبحوح:

- «لقد تزوجت غيرى. .».

- «من؟».

قلتها فى دهشة وانفعال وأنا لا أكاد أصدق أذنى فرد فى انفعال:

- «صاحبة زهرة البانسيه تزوجت. . تزوجت واحداً ممن كانوا معتقلين معنا فى أول نظر القضية. . زعم أنه لم يكن يعرف أنها

خطيبتى عندما عاتبوه . . لكن بعدِ فوات الأوان . . كنتِ واهمًا حينما فكرت فى حبها وقلبها الطيب ولم أفكر فى السنوات الخمس الطويلة . . ».

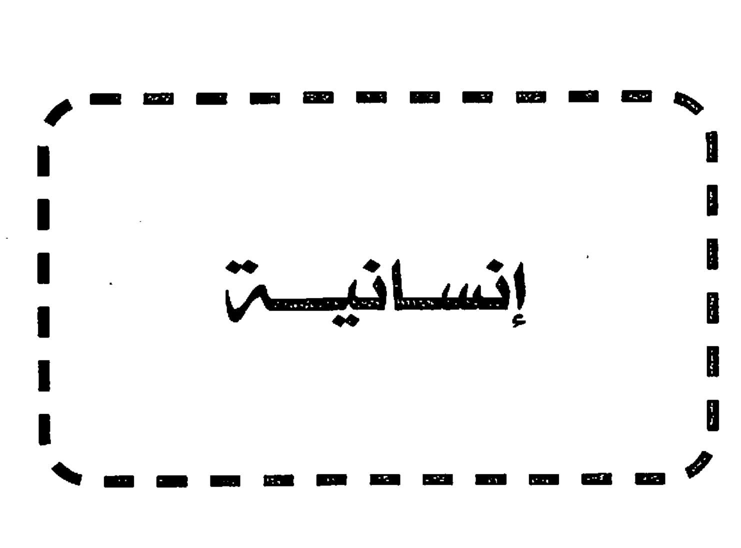
فقال عثمان مواسيًا، وهو يعلم علم اليقين أنه من العبث أن يواسيه :

- «لم يكن يشرفك أن تتزوج مثلها . . لقد ضاع الحب الصغير . . وبقى الحب الكبير . . ».

وكانت مفاجأة كبرى أن يصدر عنا عفو - نحن الثلاثة فقط - بعد تغيير الوزارة ونسينا أنفسنا فى مهرجان الفرح المنتشى، والسعادة الغامرة، وانهمرت من عيوننا الدموع دون إرادة فى الوقت الذى اتسعت فيه ثغورنا وهى تبتسم ابتسامة الأمل والانشراح، وحانت منى التفاتة إلى سميح فوجدته يحفر بأصبعه فى الركن الواقع خلف الباب، ويستخرج الصورة، ورسم زهرة البانسيه، ثم يسحقها تحت قدميه فى مرارة ولوعة . . ثم يمضى معنا بعد أن غادرنا الزنزانة لآخر مرة . . غير أن خطواته كانت مثقلة مهمومة . . وبين أهدابه دموع خرساء يمسكها حياء .

تمت

***



إنسانية

كاد ينفجر من الغيظ والساعة تدق التاسعة مساء، ثم هب واقفًا وأخـذ يذرع الردهة في خطوات عـصـبـيـة، وسـحـب من الكآبة والضيق تنسحب على ملامح وجهه، ومن آن لآخر يرفع معصمه، ثم ينظر إلى ساعته، ولا يكاد يأوي إلى مقعده حتى يخرج سيجارة وسرعان ما يشعلها، ويجذب أنفاسها في شراهة، لكن سمعه كان مشدودًا دائمًا إلى الباب.. ترى متى تتناهى إلى أذنيه تلك النقرات التي ينتظرها على أحر من الجمر.

وصحا من أفكاره القلقة على الضجة المعهودة التي يثيرها طفله الصغير بصراخه، وهتف بزوجته حانقًا:

- «إذا لم يصمت هذا الشيطان الصغير فسوف أترك البيت من أجلك ومن أجله.. هذا لا يطاق.. سوف تذهبون بعقلي بهذه التصرفات..».

وأسرعت زوجه تهدهد الطفل، وتسترضيه، كانت تزاول عملها في هدوء تحسد عليه، وسدد الزوج نظراته إلى وجهها المطمئن، وعينيها اللتين تسكبان الحنان والصفاء. وتلاقت نظراتهما، فأجفلت لأول وهلة؛ إذ بدا الشر يتوثب في وجهه.. وهتفت في رقة:

- «ما بك يا شوقى؟».

فصر على أسنانه وهو يردد فى سخرية مرة:

- «ألا تعلمين؟ لم يعد فى جيبى سوى خمسة قروش.. وحضرة المحترم الصديق العزيز «متولى» زفت الطين خدعنى.. لقد وعدنى بأن يسدد الثلاثة جنيهات - التى اقترضها منى - الليلة قبل التاسعة.. لكن ماذا أقول؟ هذا جزاء المعروف.. لو دست إنسانيتى وعشت حيوانًا لاسترحت.. كيف أطعم هذه الأفواه الجائعة الليلة؟

فهمست الزوجة، وقد أغضت بصرها:

- «تفرج.. ربنا كريم..».

قال والحدة ما زالت تخالط نبراته:

- «تفرج!! حلوة.. من أين والسماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة؟!».

- «ربنا فضله كبير..».

- «المهم لا بد من النقود.. ليس لدينا رغيف واحد.. وغدًا كيف أذهب إلى العمل؟ وماذا نأكل؟ والطفلان.. وأنت.. والخادمة؟ لعنة الله عليك يا متولى.. وعلى اليوم الذى رأيتك فيه..».

واصطدمت عين «شوقى» بالخادمة وهى تقف إلى جوار «الحوض» متظاهرة بغسل يديها، لا شك أنها قد فتحت أذنيها على

كل ما قال، وألمت بالمشكلة التى تعتصره، وازداد ألمه حينما تصور أن الخدم لا يعرفون كيف يحفظون سرآ، ودار رأسه من الغيظ عندما تخيلها وهى تنقل أسرار بيته إلى الجيران . . فلم يتمالك نفسه أن صرخ :

- «بنت ! !» .

- «نعم يا سيدى» .

- «ماذا تفعلين عندك؟» .

وارتبكت الخادمة، وأغلقت الصنبور فى عجلة، كان الصنبور تالفًا، ومن ثم ازداد تدفق الماء فى الحوض، وخلال ارتباكها كانت ترفع عينين خائفتين تجاه سيدها . ويدها تعبث فى الصنبور دون جدوى، فخطا شوقى إليها، وقد شحب وجهها، وتسمرت فى مكانها، ثم جذبها من كتفها وهو يهدر : «خذى . . خذى هذه القروش واشترى سيجارتين بلمونت . . » وأسرعت الفتاة وهى تتعثر . . وهرولت عبر السلم وصورة سيدها الغاضب تطاردها . . وما إن بلغت الشارع، حتى أطلت سيدتها من الشرفة ونادتها فى صوت خافت، وعادت الفتاة وهى تدعو الله أن يجنبها سوء العقاب . . كانت تعترف بينها وبين نفسها أنها سمحت لنفسها بالتجسس على سيدها؛ ولذا فإن توقع العقاب كان أمرًا مفروغًا منه . . لكنها جاءت سليمة . . فقد قابلتها سيدتها لدى باب الشقة، وطلبت منها أن تشترى خمسة أرغفة وبقرش طعمية، وبنصف

قرش طرشى . . وألا تنسى السيجارتين . . ثم عادت الخادمة لتهبط الدرج بعد أن أغلقت سيدتها الباب . . وتنهد شوقى فى أسى :

- «الحقيقة أننى كنت مترددًا عندما طلب متولى منى الثلاثة جنيهات . . لكنه أقسم يمنيًا مغلظًا بأنه سيردهم بعد أسبوع واحد . . إننى دائمًا ضعيف أمام أى إنسان يقع فى مأزق . . أتجاهل كل شىء إلا أن أمد يدى إليه . . وهذا عيبى الوحيد . . » .

قالت زوجه وهى ما فتئت تهدهد طفلها ، والرضا العذب ينير وجهها الفاتن الدقيق الملامح :

- «كان أبى - رحمه الله - يقول لى دائمًا : يا ابنتى . . افعلى الخير . . وارميه البحر . . لا تندمى أبدًا على فعل الخير . . » .

فرد ساخرًا :

- هكذا علمك أبوك ؛ لأنه لم يبتلَ بمثل متولى الملعون . . ولو رزقه الله بمتولى . . لأمسك به وقذف به إلى البحر إياه . . » .

وقذف شوقى بعقب السيجارة وغمغم : «يظل الإنسان منا ناقص تعليم حتى يبلغ القبر . الحق علىَّ أنا . . متولى ولد فهلوى . . استطاع أن يخدع ساذجًا مثلى . . لكن وشرفى لأفضحنه فى المكتب غدًا . . سوف أجعل كل موظفى مراقبة التموين يتسلون بفضيحته . . » .

وحاولت الزوجة بشتى الطرق أن تصرفه عن التفكير فى موضوع متولى . . والفلوس . . وليترك الأمر لله ، كانت تعلم أن

زوجها حساس جداً. . وكثيراً ما يخلق من الأمور التافهة مشاكل كبرى، ويقيم الدنيا ويقعدها من أجل أشياء بسيطة لا تستحق أن يحرق بسببها أعصابه. . وكانت حساسيته أشد بالنسبة للأزمات المالية. . كثيراً ما يتحدث عن المال. . يظن نفسه مغبونًا دائمًا. . زملاؤه يتقاضون المرتبات الكبيرة فى الشركات. . خمسة أضعاف ما يقبضه هو من مرتبه الحكومى. . إحساسه بالظلم أورثه قلقًا دائمًا، واضطرابًا ملازمًا لأغلب تصرفاته. .

كانت زوجه ترفه عنه. . لكنه كان شاردًا. . كان يفكر فى العشرين جنيهًا التى يقبضها كل شهر. . سبعة جنيهات للسكن. . ثلاثة للسجائر. . اثنان للمواصلات. . وثمانية للأكل والشرب والفسح. . إنه يحس دائمًا إحساس من يسير فى طريق ضيق على جانبيه الأشواك والأسلاك الشائكة. . ملىء بالعقبات والعثرات. . وقطعت عليه زوجه أفكاره:

- «فيم تفكر؟».

فرد دون أن يزايله شروده:

- «أفكر فى البؤس الذى نعانيه».

- «ولم لا تحمد الله؟ أنسيت يوم أن كنت بلا عمل. . وكنت تبحث عن عمل. . أى عمل. . غدًا ييسرها الله. . عندما ألد المولود الثالث سوف يزداد المرتب. . وستنال أيضًا علاوتك الدورية

بعد شهرين . . وسوف تقبض إيجار الفدانين اللذين تملكهما فى القرية . . يا أخى احمد الله . . ».

وشيئًا فشيئًا أخذت تنجاب عن ملامحه سحب الضيق والملل، وزحفت على ثغره ابتسامة مفاجئة لم تكن تتوقعها، ثم ازدادت ابتسامته اتساعًا، وأتبع ذلك كله بقهقهة عالية، وشاركته زوجته ضحكه دون أن تدرك على وجه اليقين ما يعتمل فى رأسه، وقبل أن تتساءل سمعته يقول :

- «الحقيقة أن متولى لا لوم عليه . . أتعلمين أن الذى عرض عليه السلفة هو أنا؟! شىء غريب حقاً . . لقد وجدته كئيبًا حزينًا . . وسألته . . فعلمت أنه فى مأزق فعرضت عليه نقودى . . شكرنى واعتذر عن أخذها لكنى ألححت عليه . . فى كثير من الأحيان تنتابنى نوبة كرم . . شعور داخلى يدفعنى دفعًا لأن أغدق على الناس . . أود أن أعيش فى وهم بأنى رجل ثرى مقتدر، وأستطيع أن أمد يد العون للآخرين، إنه إحساس رائع يا زوجتى. لكن . . ألا تعتقدين أن متولى غلطان . . ».

فتمتمت : «قد يكون له عذره . . لا بد وأن عقبة ما اعترضت طريقه . . ».

وامتدت يد شوقى إلى أنامل زوجته، لقد ذابت حرارة غضبه، وبدت نظرته رائقة . . سكون مشحون بالحب والأمل بعد عاصفة مدمرة من الحنق والتمرد . . وهمست الزوجة :

- «حذار . . لا تعبث . . وإلا تيقظ الولد . . ».

ورفس الطفل بقدمه الصغيرة فجأة، وصاح صيحة خافتة، ثم سكت، بينما انفجر الزوجان ضاحكين، لكنهما حاولا أن يكتما ضحكهما . . وبعد فترة صمت قالت :

- «البنت تأخرت . . ».

- «بنت ملعونة . . كل الخدامين هكذا . . لا فائدة . . » وارتج باب الشقة بطرقات عنيفة، ووثب شوقي واقفًا وهو يقول :

- «متولي . . لا بد . . هو متولي لا، غيره . . ».

وتوارت الزوجة، وأسرع شوقي صوب الباب، وهو يحاول إعادة تنسيق هندامه، ويجفف العرق المتقاطر فوق جبهته، ثم يحاول أيضًا أن يرسم ابتسامة متقنة فوق ثغره . . لا بد أن يقابل متولي بوجه باش، وأن يبدو أمامه هادئًا متزنًا وكأن أمر الفلوس لا يعنيه، ولا شك أنه سوف يقول في إنسانية متواضعة عميقة : «لماذا تتعب نفسك يا متولي؟ لا وجه للاستعجال بتاتًا . . فلوسي . . هي فلوسك يا متولي يا صديقي العزيز» إذا كنت تريد مزيداً من النقود فأخوك شوقي قدها وقدود . . ».

لكنه ما كاد يبلغ باب الشقة حتى سمع زمجرات وشهقات بكاء . . وفتح الباب فرأى بواب البيت يقبض على معصم «الخادمة» ويجرها في قسوة ويقول :

- «متأسف يا شوقى بك . . هذه البنت مجنونة ضحكوا عليها وأخذوا فلوسها . . ».

فعاد إلى وجه شوقى الاكفهرار والضيق وغمغم :

- «ماذا؟» .

- «بسلامتها مرت برجل يلعب القمار . شغل الثلاث ورقات . . حضرتك عارف . . من يدفع قرشًا يأخذ خمسة . . من يدفع خمسة يأخذ نصف جنيه . . المهم أنها اندست وسط الصبية ولعبت القمار . . فطار ما معها . . ثم جاءت لتبكى على ناصية الشارع . . الحقيقة يا بك دمى فار لما عرفت الحكاية . . ف . . فضربتها قلمين . . ».

فقال شوقى وهو يجرها إلى الداخل، ورنة الأسى فى نبراته :

- «ليتك قطعت رقبتها . . ».

قبعت الفتاة ذليلة مقهورة فى ركن المطبخ، وخوف فظيع يطل من عينيها، وجسمها كله يرتعد رغم حرارة الجو، ووقف شوقى وسط الردهة مشدوهًا وقد عاوده قلقه وحنقه ثم نادى زوجته :

- «تعالى . . تفرجى على بنت المركوب . . لا أكل ولا سجاير . . نويت الصيام . . ».

وكانت دهشة الزوجة هى الأخرى بالغة، هل أصيبت البنت بلوثة فى عقلها، إنها لم تقدم على مثل هذه المخالفة الخطيرة أبدًا . .

سبحان الله . . لعلها إرادة الله . . نوع من الامتحان والابتلاء . . وارتمى شوقى على كرسيه ، ورغبة عارمة فى التدخين - فى السيجارتين اللتين لم تصلاه - تحتل رأسه الملتهب .

وفى المطبخ اقتربت الزوجة من الخادمة ، فانتفضت الصغيرة مذعورة كمن لدغتها عقرب ، فربتت الزوجة على كتفها فى حنان قائلة :

- «لا تخافى يا حبيبتى . . تكلمى . . لم فعلت ذلك؟» .

وعادت الخادمة إلى البكاء والنشيج ، ومن بين دموعها المتدفقة كانت تردد : «والنبى يا ست . . أنا فى عرضك . . حقك علىّ يا ست . . اخصميها من أجرتى . . غصب عنى يا ست؟» .

شوقى لم يزل جالسًا ينفخ من الغيظ . .

ولأول مرة يشعر برغبة لا تقاوم فى التدخين . . رغبة لم يشعر بها طول حياته . . حتى معدته هى الأخرى أخذت تتقلص . . وتنذر بالجوع . وبدا له أن أمر الخادمة طلسم عويص الحل . . «مجنونة . . لا شك . . مجنونة رسمى . . تلعب قمارًا بالقرشين الباقيين . . » .

والزوجة تربت على كتف الخادمة ، ، ودهشتها لم تزايلها بعد ، وفجأة قالت الخادمة :

- «أقول لك الحق يا ستى . . » .

- «قولى يا حبيبتى . . » .

- «أنا . . أصلى . . أنا سمعت سيدى وهو يتكلم عن الفلوس . . سمعته وأنا عند الحوض . . صعب عليَّ سيدى والنبى يا ستى . . قلت لازم أخلق فلوس من تحت الأرض . . سيدى كان متأثراً . . لقيت رجل القمار . . ولقيت القرش يكسب خمسة . . والخمسة تكسب نصف جنيه . . طريقة سهلة للحصول على الفلوس . . لكنهم كانوا لصوصًا . . ضحكوا عليَّ وأخذوا ما معى . . خسرت . . فبكيت . . ضحكوا على يا ستى . . والنبى نيتى كانت سليمة . . » .

كانت الزوجة تستمع إليها بكل كيانها ، الكلمات الساذجة التى تتدفق من فم الفتاة تعبر عن أعماق بيضاء صافية . . لم تعد فى نظرها مجرد خادمة بل أكبر من ذلك بكثير . . أصبحت منهم . . مثل أولادها تمامًا . . أحست بالمأساة التى تأخذ بخناق أسرة سيدها ، فهزتها وآلمتها ، ودفعتها إلى التفكير فى الحل . . أى حل يجلب المال حتى لا يثور سيدها . . صدق أبوها الله يرحمه : «الخير فى الدنيا كثير . . الخير لا يموت» لشد ما أصبحت هذه الطفلة الصغيرة كبيرة فى نظرها . . إنسانة ساذجة طاهرة . .

واقتربت منها - والطفلة لم تزل ترتعد - ثم احتوتها بين ذراعيها ، وراودتها المشاعر نفسها التى تراودها كلما ضمت إلى صدرها طفلاً من طفليها ، ثم قبلتها فى حنان ، وهمت بأن تنادى زوجها ليرى ذلك المعنى الكبير البسيط ، غير أنها سمعت طرقات من جديد :

- «من؟» .

قالها الزوج والشرر يتطاير من عينيه، فجاءه الرد من خلف الباب:

- «أنا متولى..».

***

تناول شوقى الجنيهات الثلاثة فى تؤدة وهدوء، ثم وضعها فى إهمال متعمد على مقعد مجاور وهو يتمتم:

- «فيم العجلة يا متولى.. يا أخى الصباح رباح.. يعنى الدنيا طارت.. جيبى وجيبك واحد..».

- «شاكر إنسانيتك يا شوقى.. أنت راجل فاضل.. لولاك لكنت تورطت فى مشكلة لا يعلم إلا الله مداها..».

وعندما صافح متولى مودعًا، لم يعد يجد فى نفسه رغبة ملحة إلى التدخين.. ومعدته هى الأخرى لا تنذر بجوع أو شهية إلى الطعام.

وابتسمت زوجته، ولم يخف عليه رنة السخرية فى حديثها:

- «ألا تمطر السماء ذهبًا ولا فضة؟!».

فرد شوقى فى مرح زائد:

- «بل أمطرت هذه المرة متولى»..

تمت

***

العتريس

لم تكد الساعة تجاوز السابعة صباحًا حتى تناهى إلى السمع صوت المفاتيح وهى تفتح أبواب الزنازين فى عنف وعجلة، وكان صوت الأحذية الثقيلة وهى ترتطم بالأرض وتنتقل مسرعة كفيلاً بأن يبعث فى نفوسنا شيئًا من القلق والتوجس بالرغم من أن القلق سمة بارزة، وصفة لاصقة بنا نحن السجناء، وسرعان ما غادرنا أبراشنا، ونحينا الأغطية جانبًا، وأسرعنا نحو باب الزنزانة محاولين تجنب الاصطدام بجردل الماء والقروان الملقى جانبًا، وأخذنا نبحث بنظراتنا الوجلة من خلال الشراعات كى نستجلى حقيقة الأمر، وبالرغم من ذلك فقد كانت تعليقات السجناء تجد لها متنفسًا فى هذا الجو المرتبك، فتختلط وتتعارض وتتفق فى وقت واحد:

- لا بد يا جدعان فيه إفراج عن السجن كله..

- لا وشنبك. الإفراج عن قضايا المخدرات فقط.. إنهم مظلومون..

- ونحن؟ ماذا فعلنا؟

- أنت حرامى ابن..

ولم يخل الأمر من متشائم يصيح قائلاً:

- إفراج!! ها.. ها.. يا مجنون أنت وهو لازم فيه تفتيش..

- يا خبر أسود!! تفتيش؟؟

- طبعًا.. أسرعوا.. وأخفوا هذه الممنوعات وإلا رحنا فى داهية..

ووسط هذا الجو من التساؤل والصياح والضجيج، ارتفع صوت أحد السجانة قائلاً: «العنبر كله يسمع.. تسعة وعشرة وأحد عشر واثنا عشر.. كله ينزل تحت»..

فيهتف أحد المتفائلين: «ألم أقل لكم؟!.. وشرف أمى هذا هو الإفراج.. أنا رأيت رؤيا خير والصلاة على النبى فى هذه الليلة..». ولم يستثنِ من النزول إلى فناء السجن المرضى أو العجزة؛ لأن أوامر السجانة صريحة فى ضرورة نزول الجميع بدون استثناء، فلا الفطور ولا الحاجة الماسة للذهاب إلى الدورة بالذى يعفى من النزول.. وعنبر «ج» ملىء بالمكسحين ومرضى الجلد والدرن والذين هم تحت الملاحظة الطبية.

وكان البرد شديدًا قاسيًا يثلج أطرافنا، ويبعث الشعريرة فى الأبدان، فنحس بوخزه الشديد فى جلودنا، ورغم الملابس الزرقاء التى كنا نلبسها فقد كنا نشعر وكأننا نقف عرايا فى الهواء الطلق البارد، قد يكون ذلك من جراء الملابس الخفيفة الممزقة، أو بسبب سوء التغذية أو الانفعال الشديد الذى سيطر علينا من جراء انتظار المجهول، أو لهذه الأسباب مجتمعة.. ولفت نظرى رجل خائر القوى، أشعث اللحية، أشيب الشعر، منطفئ البصر لا يكاد يرى

شيئًا، وقد أظهرت ثيابه الممزقة أجزاء كثيرة من جسمه فى مناطق مختلفة، رؤيتها تؤذى البصر، وكانت أقدامه المتسخة المتورمة، واللعاب الذى يتسرب من فمه، والكدمات التى تبدو فيما ظهر من جسده، تبعث فى النفس كثيرًا من التقزز والغثيان، كما أنها- إلى جانب ذلك- تثير شيئًا من الإشفاق والألم، وكان يحمل هذا الرجل اثنان من النزلاء الأقوياء وهو بين أيديهم ساكن هادئ يمسك بين أصبعه «عقب سيجارة» يجذب بين وقت وآخر نفسًا قصيرًا منه، أما الرجلان اللذان كانا يحملانه فقد كانا يلاحقانه بالشتائم والتعليقات اللاذعة:

- أحسن لك تموت..

- لماذا يموت إذا كان يجد اثنين من الحمير يركبهما..

- لو كان الأمر أمرى لقذفت به من فوق على رقبته.

- أنت يا راجل رائحتك بلا..

وكان الرجل لا يكلف نفسه مئونة الرد على تعليقاتهم، بل كان يهتز فى برود وغباء مع تنقلات الرجلين، ومن آن لآخر يقرب عقب السيجارة من فيه ويحاول أن يجذب نفسًا قصيرًا..

وحاولت أن أصرف النظر عن هذا الرجل الشاحب المتخاذل الغارق فى أقذاره وأسقامه، لكننى فوجئت به ملقى خلفى فى آخر الصف بعد أن تراصت جموع المسجونين فى فناء السجن، وكان يرتكز على الحائط، وجسمه كله يرتعد ويضع على ظهره جزءًا من

بطانية قديمة بالية لا يزيد على نصف متر مربع .. ولست أدرى السبب الذى دفعنى لأن أستفسر من أحد الرجلين عن اسم هذا البائس، فقال أحدهم :

- «دا العتريس الله يخرب بيته . . » .

ولم يطل حديثى معه، فقد صاح الصول للسجان بصوت أجش مرتفع :

- «انتباه . . . » وأخذ يمط فى حرف الباء بصورة ملفتة للنظر، وهنا تململ العتريس فى مكانه وقال لأحد الرجلين المرافقين له :

- من هذا الولد يا ولد يا أبو الحديد . .

- لم؟ هل تصاهره . . ؟؟

- قل لى من . .

- البك المدير .

- اسمه إيه؟؟

- محمود بك كفى ثرثرة . .

وعلى الأثر رفع العتريس رأسه المرتعش، وحملق بعينيه اللتين لا تريان شيئًا، ثم انهمرت دموعه فجأة، وقال فى صوت متحشرج :

- «محمود بك . . ؟ دا حبيبى . . تعال يا حبيبى . . الحقنى يا محمود بيه . . مش فاكرنى . . دانا العتريس يا حبيبى» . .

وبالرغم من أن من حوله قد ضجوا بالضحك بما فيهم الرجلان اللذان معه ألا أننى شعرت بمزيد من الحزن والأسى، وأوشك الدمع أن يطفر من عينى كلما أعدت النظر إلى الرجل وملبسه وعينيه وأقدامه المتورمة وسمته التعس القذر الذى يبعث التقزز الممزوج بالإشفاق فى نفسى.

وخفت الضجة التى صاحبت مجىء المدير فى انتظار سماع السبب الذى من أجله جمعوا المسجونين فى صعيد واحد وأقعدوهم فى صفوف متراصة، وسرعان ما سرى بين الجالسين أن هناك فى السجن إحصائية سنوية لا غير، وكان سريان هذا النبأ بين الصفوف مدعاة لخيبة الآمال وانهيارًا لأحلام الإفراج التى كانوا يهذون بها، ومع ذلك فقد زعم بعض المسجونين أن هذه الإحصائية السنوية قد يكون وراءها شيء ما، وهم يقصدون بهذا الشيء الإفراج..

وبعد فترة كان الملل والضيق يسيطر على الجميع، ويرتسم فى الوجوه والنظرات، وكلما تذكروا أن هذه الإحصائية قد تستغرق طول النهار، وفى ذلك ما فيه من تعب وإنهاك وعدم التمكن من تناول الطعام، راودهم الحنق المكظوم والثورة المكبوتة التى لا يستطيعون لها تصريفا..

والتفت إلى «أبى الحديد» وهو اسم الرجل الواقف بجوار العتريس وقلت له مشيرًا إليه:

- لماذا سجنوه؟

فقال:

- «تقصد العتريس؟».

- أجل..

- هروب من المراقبة..

فقلت في دهشة:

- هروب؟ أى هروب تعنى؟ إنه لا يستطيع أن يتحرك.. وأى مراقبة؟

فقال أبو الحديد فى كبرياء وفخر شأن من يعلم أمرًا يجهله الناس:

- «العتريس هذا.. رجل سوابق.. قضى جزءًا كبيرًا من حياته في السجون.. وآخر مرة حكم عليه فيها بخمس سنوات شغل.. ولابد أن يراقب بعدالإفراج عنه.. لكن العتريس ليس له بيت ووجوده على الرصيف يعنى هروبًا من المراقبة..».

فنظرت إلى الرجل الذى عاش أغلب سنوات شبابه وكهولته فى السجون.. أو بعبارة أخرى نظرت إلى هيكله المتفانى، وحطامه الملقى على الأرض ككومة من أقذار، لكن أبا الحديد عاد يقول:

- «السجون أكلت شبابه.. انظر كيف أصبح!!.. رمة.. هيه.. دنيا»..

ويبدو أن العتريس رغم سقمه وضعف قواه العقلية والبرودة التى تهز كيانه هزآ، كان يستمع إلى أطراف الحوار الذى يدور بينى وبين رفيقه «أبى الحديد» والدليل على ذلك أن العتريس قاطعنا قائلاً وهو يحول وجهه نحونا:

- «هيه . . ياما . . سرقنا . . سرقنا كثيرًا . . وكنا نلعب بالفلوس لعبا . . نساء . . وخمرا. وحشيش . . وقمار . . وياما لبسنا الحرير والجوخ وآخرتها!! اللى تجيبه الريح تخده الزوابع والآن . . للأسف . . لا أجد ثمن سيجارة» . .

ثم قال بصوته المتحشرج الباكى:

- «يا ولد يا أبو الحديد . . هات لى لقمة عيش . . أنا جوعان . . أنا جوعان . . ومسكين آه يانى . .

- طيب . . انكتم . . سأحضر لك ما تريد . . عيب كبير أن تبكى . . لا تفضحنا يا عتريس رجال السبتية لا يصح أن يبكوا كالنساء . .

وضجة أخرى . . ثم «انتباه» مرة ثانية . . ويبدو أن المدير قد انتهى مروره، وهو يتجه الآن إلى مكتبه . . وبعد فترة وجيزة زعق الصول السجان بصوته المعروف:

- «كله يقعد الأرض» فعاد السجناء إلى الجلوس، وعاد العتريس إلى حديثه عن أيامه الغابرة ولياليه المليئة بالمغامرات، كان كالقائد المهزوم الذى يجتر ذكريات انتصاره، ولحظات بطولته،

ليمسح عن نفسه بعض غبار الهزيمة، وذل الحاضر، وهمس العتريس، وكأنه فى حلم:

- «فاكر يا أبو الحديد لما أنا سرقت حسنين باشا . . » فالتفت إلىّ أبو الحديد وقال فى لهجة تأكيدية:

- فعلاً . . سرق حسنين باشا . . وباشوات غيره كثيرين . . العتريس لم تنجب مثله ولادة فى السرقة يا سلام . . إن ما يقاسيه الآن شيء قليل بالنسبة لماضيه الشنيع . . ؟

- «أكنت تعرف العتريس من قبل يا أبو الحديد؟».

فقهقه أبو الحديد ساخرًا وقال:

- ظريفة!!! . . إلا أعرفه . . كلنا تلامذته . .

- يعنى أنت .

- نعم . . أنا أيضًا حرامى . .

***

وفى المساء كانت الزنزانة التى يسكن فيها العتريس وأبو الحديد مسرحًا للضجيج والتذمر والنقاش الحاد، وهذه الزنزانة تضم بين جدرانها ما يربو على عشرين سجينًا تحت الملاحظة الطبية، منهم من يستحق هذه الملاحظة ومنهم من يتحايل بشتى الطرق حتى يحصل عليها، ولن يعدم الواحد منهم وسيلة من الوسائل تبلغه ما يريد، فاصطناع العاهات، وادعاء المرض و . . و . . إلخ كلها

وسائل ميسورة، وكان بين النزلاء الموجودين بالزنزانة السيد «الكسيح» وحسن «الأقرع»، وأبو الحديد الذى يتصنع المرض، وعبد الرزاق المجنون، وحسن حته وأحمد شعر المكر. . والمعلم أبو سريع وغيرهم. . وكان سر الضجيج والنقاش الحاد. . هو. . أن العتريس قد استسلم لنشيج متصل، وتأوهات لا تكاد تنقطع، وشكوى مرة من جراء ما دهمه من آلام متزايدة، ورغبات يبدو فيها التناقض، فإذا ما طلب الماء وأحضروه له، قربه من فمه ثم رده كما هو، وإذا طلب خبزًا قضم لقمة ثم قذف بالرغيف، وبصق اللقمة التى لاكها فى فمه، وإذا ما طلب نصف سيجارة من «تلامذته» وضعها بين أصبعيه دون أن يستعملها حتى تحترق وتلسع أصبعيه فيقذف بها، لهذا صاح به أبو الحديد محتدآ:

- عليك اللعنة. . نم يا رجل ودعنا نستريح. . أنت دماغك مصفح؟

أما أحمد شعر المكر فيقول:

- إذا لم تنم فسأقذف بك فى الجردل الوسخ. . ؟

أما السيد الكسيح فيقول ساخرًا:

- سجون. . هيه. . سجون تقرف. . رمرمة. . وتجمع الضايعين. . العتريس، على أحمد شعر المكر، على حسن الأقرع. . الزمان قلب حاله. . فليحرقنى الله فى جهنم إذا سجنت معكم ثانية يا حثالة المجتمع. .

ويقاطعهم العتريس وهو يقول فى ضراعة :

- «يا ولد يا أبو الحديد . . لفنى بالبطانية . . البرد شديد . . آه . . » .

- سلامتك من الآه يا أبو السباع . . أين أجد البطاطين يا عتريس؟

- «يا أولاد أنا لى بطانيتى . . وليس علىّ غير واحدة . . هاتوا الثانية أنتم سرقتوها . . اعمل معروفًا يا أبو الحديد» . .

- يا راجل . . نم . . نامت عليك حيطة . .

وحاول العتريس أن يتكلم، لكن نصف الكلمة الأخير لم يستطع أن يخرج من بين شفتيه، وأطبق عليه صمت عميق، وحينما حاولوا الحديث معه لم يرد عليهم، فاقترب منه أبو الحديد، ونظر فى وجهه فوجده شاحبًا منقبضًا أكثر من ذى قبل، ووجد عينيه قد تسمرتا فى السقف، ولاحظ أبو الحديد أن الذراع الأيسر والرجل اليسرى، قد تشنجتا بطريقة مخيفة، أما أنفاسه فقد تلاحقت كمن يعدو فى سباق حار رهيب، فهتف أبو الحديد فى خوف:

- «الرجل أصيب بالشلل يا جماعة . . » .

وأخذ السيد الكسيح يزحف نحو العتريس، أما حسن الأقرع، وأحمد شعر المكر فقد سبقاه ليفحصا الرجل ويتأكدا مما يزعمه أبو الحديد، وتبعهم بقية أفراد الزنزانة، حينما تجمعوا حول العتريس وأدركوا ما أصابه اختفت الشراسة والغلظة من وجوههم، وذابت بسمات التهكم والسخرية، ولم يعد للنظرات الخبيثة الماكرة مكان

فى عيونهم، بل حل محلها حزن وألم تنطق بهما ملامحهم القلقة المشفقة، وهمس أحمد شعر المكر:

- ماذا تنتظرون؟ نادوا خفر الليل ليطلب دكتور السجن.. فرد أبو الحديد:

- وما يجدى؟ لن يطيل الطبيب عمره.. ليأخذ نصيبه.. أما السيد الكسيح فقد واصل زحفه ناحية باب الزنزانة وأخذ يطرقه طرقات متتابعة عنيفة ويصيح:

- «يا خفر الليل»..

- نام يا ولد..

- أنام؟ الرجل بيموت..

- وماذا أعمل؟ يموت.. مع السلامة..

- يا خفر الليل.. الله يخرب بيتك.. بلغ..

- خلاص بلغنا يا ابن الـ. أنت فاكرنى خدامك هنا..

ولم يكن من السهل على خفر الليل أن يصدق ما يزعمه السيد الكسيح؛ فكثيراً ما يخدعه المسجونون، ويزعمون أن أحدهم «يطالع فى الروح» أو أن الآخر «سايح فى دمه» حتى إذا جاءهم السجان طلبوا وألحوا فى الطلب أن يحضر لهم شيئًا من زنزانة مجاورة، أو توسلوا إليه أن يشعل لهم سيجاراً وهكذا..

***

وفى الصباح تأخر فتح الزنازين عن الميعاد ما يقرب من نصف الساعة، وأطل أحدنا من الشراعة ليرى ما حدث، فوجد العتريس موضوعًا على نقالة بسمته الكئيب الشاحب فى سكون وصمت وجمود، ومن خلفه الباش تومرجى يقول :

- «على المشرحة دغرى . . يعنى لازم كان يموت فى اليوم الأغبر ده . . الدنيا مطر والجو برد . . ناس ما عندهاش ذوق حتى فى الموت . .

وأطبق علينا صمت ثقيل مقبض، ودار فى مخيلة كل منا منظر البوابة . . البوابة الخلفية التى يخرج منها المسجونون الذين تدهمهم المنية، وصاح أحد الأصدقاء :

- فيم حزنك؟ لقد أراحه الله . .

ولم أجب عليه، لأن باب الزنزانة فتح فجأة، ورمقنا السجان بنظرة عابرة، وقال عبارته التى يقولها كل يوم كالمعتاد دون أى انفعال، ودون أن يظهر على وجهه أى تعبير ذى معنى :

- «اطلعوا . . الفسحة . . » .

فتسابقنا قبل أن تزدحم دورة المياه فلا نجد مكانًا نقضى فيه حاجتنا . .

تمت

***


متى نعود؟

لم تكن هذه أول مرة تحس فيها «نجوى» أن حياتها لا طعم لها، لقد طال عليها هذا الإحساس حتى أصبح شيئًا مألوفًا لديها، وجزءًا لا يتجزء من وجودها . .

كان الوقت لم يزل مبكرًا. وزميلاتها يزحفن - شاحبات الوجوه، قلقات النظرات - صوب المشغل الذى تملكه وتديره «مدام ميشيل»، وهو بناء متهافت . . قذر . . سيئ التهوية، قرب معسكر «البريج» بقطاع غزة حيث يتكدس الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين، وبعد لحظات وجدت نجوى نفسها أمام المشهد المألوف الذى تراه كل يوم . . أربعون فتاة من اللاجئات، تتراوح أعمارهن بين السادسة عشرة والثامنة عشرة، مكبات على العمل، لا ترتفع نظراتهن عن الإبرة والخيط الذى ينسحب خلفها، وبين آونة وأخرى تختطف إحداهن نظرة لتريح عينيها أو تتأسى بمنظر الأيدى الصغيرة الجميلة التى لا تكل، وحبات العرق التى تلمع على الجباه الشاحبة، لكن «مدام ميشيل» سرعان ما تأتى بدون مقدمات، وكأن الأرض قد انشقت عنها، وتصرخ فيهن مهددة.

- ما هذا يا فتيات؟ إن من لا تلتفت إلى عملها سوف أطردها فورًا. . أنتن تعلمن أن عشرات غيركن تقبلن حذائى لأسمح لهن بالعمل هنا. . ».

ثم تقترب المدام من إحداهن، وعيناها تنطقان بالحقد والغضب:

- «سهام. . لا ترفعى عينيك عن العمل. . ليلى. . سوف أقطع لسانك إذا لم تكفى عن الحديث. . وأنت يا هدى أقسم - لو ضحكت مرة ثانية - لأفقأن عينيك. . ».

وساد الصمت، الأيدى ترتعش خوفًا، والمشغل بدا وكأنه خلية نحل بلا طنين. . رءوس منحنية. . وأعين مركزة. . والإبر فى حركة دائبة، والمنسوجات الحريرية - المفارش الرائعة - تنمو طولاً وعرضًا. وألوانها الزاهية تعكس على الوجوه الشاحبة ألوان الطيف. .

والتفتت مدام ميشيل فجأة إلى نجوى وقالت:

- «صح النوم. . زميلاك هنا منذ ساعة!!».

واقتربت المدام منها، وأمسكت بأذنها فى غلظة، وهزتها معنفة، وعيناها تتحركان فى محجريهما كقطة عجوز:

- اليوم سيكون أجرك ستة قروش وليس سبعة. . مفهوم؟

ثم دفعتها إلى ركنها المعهود الذى تزاول فيه عملها، وولت فى خطوات عصبية. .

وتنهدت نجوى وهى تأخذ مكانها، وظلت ساكنة برهة، وعيون البنات تتلصص عليها خفية، وهى شاردة عن كل ما حولها، وانطلقت بأفكارها إلى بعيد. . إلى حيث يثوى ذلك الطريق المرصوف المحاذى لشاطئ البحر. . الطريق الذى يتلوى ويمتد وراء الأفق. هناك ترتفع مبانى يافا المدينة الخضراء، وهناك بستان أبيها الكبير، ورائحة أزهار اللارنج والليمون والتفاح. . كان لأبيها بستان. . وقصر ومجد. . وذات مساء - وهى لم تزل طفلة فى الخامسة - صحت على أقدام الغزاة تدق شوارع المدينة. . وأيديهم الملوثة بالدم تدق أبواب المساكين. . كانت آثار النوم لم تزل عالقة بأهدابها، وعقلها الصغير لم يكن قد استيقظ بعد. . وجرحى وقتلى. . وصراخ وعويل وبكاء! وأمها لدى عتبة الباب، تنحنى على شىء مكتوم فى الظلام، وتبكى بحرارة وتصرخ: «حبيبى. . حبيبى». . وعرفت آنذاك أنهم قتلوا أباها. . وقبل أن يطلع النهار، كانت أمها، وإخوتها الصغار وألوف الضحايا يزحفون نحو الجنوب وسط النار والفجر لم يشرق بعد. .

وتدحرجت دمعة على خد «نجوى» وهمت أن تجففها، لكن صوت «مدام ميشيل» صك أذنيها، فشلها عن الحركة:

- «يا خبر أسود! ! ألم تعملى أى شىء؟؟ يا شيطانة يا ملعونة. . ».

ولم تضع نجوى الوقت، بل أمسكت بالإبرة، وأخذت تطرز المفرش الحريرى الناعم، وشعرت ويدها تلامس المفرش، إنه يشبه

- إلى حد كبير - ملمس الحية . . وانهمكت فى عملها آملة أن تريح نفسها من تقريع «المدام» وعقوبتها الصارمة ، والأهم من ذلك ألا تخسر قرشًا فتعود إلى كوخها فى معسكر «البريج» حيث أمها وإخوتها وليس معها غير خمسة قروش . . خمسة قروش فقط ، مقابل يوم كامل من مشرق الشمس إلى مغربها .

وقالت «المدام» وهى تزمع الخروج ، وصوتها الصارم لم تتغير لهجته :

- «الاجتهاد معناه بقشيش . . سمية سأعطيها نصف قرش مكافأة على جدها . . والبقية تأتى» .

وتعود نجوى إلى أفكارها وذكرياتها ويدها لا تكف عن العمل . . هل لو عاش أبوها وبقيت الأرض والبساتين والقصر ، أكانت تحس بهذا الألم اللاذع وتلك المذلة القاسية ، وتريق ماء عينيها وشبابها على تلك الإبرة التى تنغرز فى أناملها من آن لآخر ، وتحيا فى هذا الخوف الرهيب ، الخوف الذى تزرعه المدام فى نفسها كل ساعة ، وهى تهددها بالطرد وبإنقاص الأجر؟

وهمست نجوى بعد طول صمت فى أذن جارتها :

- «أتظنين يا سهام أننا عائدون؟» .

- «ولم لا؟» .

- «آه . . نحن نصحو على هذا الأمل من سنين . . كل يوم نقول

غداً نعود . . مثل السجين المحكوم عليه بالسجن الطويل، لكنه لا ييأس أبداً . . وينتظر الفرج كل لحظة . . آه يا سهام».

فقالت سهام متنهدة :

- «أتعلمين أول شيء أفعله لو عدت إلى بلدى؟».

- «ماذا؟».

- «سوف أبصق في وجه مدام ميشيل . . هذه الخواجاية العجوز التى تستغل طاقتنا أبشع استغلال . . وتمتص شبابنا ومتعتنا . . إنها صهيونية الأخلاق . . وإن كانت فرنسية الأصل وعلى فكرة هناك من يقول إن جدتها يهودية متنصرة».

وهمت نجوى أن تقول شيئاً، لكن صلصلة جرس الغداء أوقفت العمل فى المشغل وقطعت الأحاديث الثنائية الخاصة، وسادت المشغل ضجة ظاهرة، لقد قاربت الساعة الثانية بعد الظهر، وآن أوان الغداء، فهرعت الفتيات إلى الخارج، ليتنفسن الهواء ويستمتعن بالشمس رغم حرارتها اللافحة، ويرين الذاهبين والعائدين بسراويلهم الكالحة الممزقة، ولحاهم الكثة المهملة، وليشترين رغيفاً أسود مع قطعة من الجبن «القريش» المغفر، ويجرعن الماء!!

نصف ساعة فقط أمامهن ليأكلن ويشربن ويقضين حاجاتهن ويسترحن، ثم يعدن إلى المشغل والإبرة، والمفارش ومدام ميشيل بسحنتها الغاضبة الصارمة التى لا تعرف التهاون أو الرحمة أو الحب . .

ولم تكد تمر دقائق قليلة حتى كانت الأرغفة السوداء قد غيبت في البطون، وانطلقت الفتيات يمرحن ويغنين أغنيات شائعة ميتة. . بينما انحنت «نجوى» جانبًا تحت ظل شجرة قميئة. . وبدت بصدرها النامي، وجمالها الرائع الحزين، وعينيها الفاتنتين، وكأنها تتحدى الأسى والجوع والعذاب، وما إن رأتها «سهام» حتى اقتربت منها هامسة :

- «لم أرك تأكلين. . ».

ولم تنطق نجوى، بل آثرت الصمت، لكن «سهام» فهمت كل شيء، إن «المدام» قد اقتطعت من أجر نجوى قرشًا، ونجوى لا تستطيع أن تذهب إلى أمها وتسلمها الأجر ناقصًا. . صحيح أن أصبع قدمها اليمنى ملتهبة. . وتؤلمها، وتعوقها عن الإسراع في المشي، وتوقد في جسدها حمى لا تأبه لها، لكن «مدام ميشيل» لا ترحم، ولا تهمها الحمى بقدر ما يهمها الإنتاج. . الإنتاج هو المهم. . وإخوتها الصغار يريدون أن يأكلوا. . ولم يكن هناك حل سوى أن تصوم «نجوى». . تصوم اليوم كله كي تعود إلى أمها بالأجر كاملاً. . واحتدمت الثورة في قلب سهام وهتفت :

- «هذه المرأة غول. . وحش!!».

فأجابتها نجوى بصوت مبحوح :

- «ليست هي. . وإنما الذين تسببوا في النكبة الكبرى. . ».

- «كلما نظرت إلى وجهها تجسمت لي المأساة. . إنها تبيع

المفرش الواحد بما قيمته أربعون جنيهًا، مع أنه لا يكلفها سوى خمس هذا المبلغ . . ».

وصمتت سهام، وفى داخلها أتون ملتهب يغلى . . وهمست نجوى :

- «لو كانت الفتيات يدًا واحدة لأرغمن المدام على زيادة الأجر . . ».

- «كيف يا نجوى؟».

- «نمتنع عن العمل».

فقالت سهام بحزن :

- لكننا فى حاجة ماسة إلى العمل».

- «وهى كذلك . . إنها تريد أن تربح . . وإذا ما تعطل المشغل نجمت خسائر فادحة لها».

- «سوف تطلب عاملات غيرنا . . المئات يطرقن بابها كل يوم . . ».

- «هذا صحيح . . لكن ليس لديهن خبراتنا . . ولسوف ترضخ المدام لمطالبنا . .

شردت سهام بضع لحظات وأعملت فكرها فيما قالته نجوى، وبدا على وجهها شيء من الارتياح وهتفت فرحة :

- «فكرة رائعة».

ودق جرس العمل، وعادت الفتيات إلى أماكنهن حيث العمل المتواصل، وحبات العرق التى تلمع فوق الوجوه الشاحبة، ودارت الهمسات، وانتشرت الفكرة بينهن، وخيل للفتيات أن زيادة قرش أو قرشين كسب عظيم. . ومعنى كبير. . لا لمجرد الزيادة فى الأجر فحسب، بل للرغبة فى الانتصار، إرغام هذه المدام المتعجرفة على الإنصاف وقهرها ولو مرة واحدة. .

وغابت الشمس أو كادت. .

وشعرت الفتيات أن أجسادهن مخدرة متعبة، وأن النوم يحاول أن يغلق عيونهن على الرغم منهن، بعد أن طال تحديقهن فى المفارش الملونة وفى الإبر فى حركاتها الدائبة. وما أن دق الجرس للمرة الأخيرة حتى تحاملن وخرجن من المشغل فى خطوات منهكة مكدودة. وطوال الطريق إلى معسكر «البريج» كن يتحدثن فى أمر المدام، والزيادة المرتقبة، والزعيمة البطلة «نجوى».

ودخلت نجوى المعسكر مع الظلام الدامس الذى يغطى أكواخ اللاجئين بردائه الأسود، وأخذت تتلمس الطريق عبر الدروب والطرق الضيقة الملتوية، والأكواخ المتلاصقة الواطئة تبدو وكأنها أقبية قيود عديدة، تنبعث منها رائحة الحياة والعفن، مع أنين طفل صغير، أو تأوه عليل، أو أغنية حزينة لغريب!

كانت نجوى تتذكر كل لحظة الصورة المرتقبة للموقف وملامح وجه المدام، ووقوف الفتيات وراءها صفاً واحداً يتحدين الظلم والخوف.

وفى اليوم التالى كانت نجوى لم تزل تعرج، وآلام قدمها ما فتئت تعذبها، ولهذا أتت متأخرة نصف ساعة، وهمت أن تعبر المدخل المؤدى إلى المشغل، لكن مدام ميشيل ظهرت فجأة، ثم رفعت يدها العجفاء، وأمارات الحقد والغيظ تنطلق من عينيها ومن تجاعيد وجهها الغاضب، وصرخت:

- «إلى أين؟».

- «إلى العمل..».

فقالت المدام فى سخرية قائلة:

- «لا مكان لك بعد اليوم هنا.. عودى إلى معسكر اللاجئين وهناك تستطيعين أن تحرضى على الثورة، وتعرقلى الأعمال كيف شئت.. لست نائمة.. لقد علمت كل ما تدبرينه فى الخفاء».

ثم التفتت المدام إلى الفتيات قائلة:

- «يا بنات.. ابتداء من اليوم سوف أرفع أجوركن قرشًا كاملاً.. لكنى فى الوقت نفسه لن أسمح لأية عابثة أن تبقى هنا.. مفهوم؟».

وعادت إلى نجوى تقول:

- «هيا.. اخرجى.. ليس لدينا وقت لنضيعه معك».. وثار الدم فى عروق نجوى، وبلا وعى أو تفكير بصقت.. بصقت فى وجه المدام..

ثم استدارت خارجة، كان الحزن والألم والمصير التعس والأطفال الصغار.. وأمها.. كل ذلك يثير فى نفسها أسى ما بعده أسى! لكن ومضة صغيرة من ومضات السعادة كانت تنير ظلام نفسها.. لقد انتصرت.. وارتفع الأجر.. ومن يدرى؟ قد تعود يومًا ما إلى يافا والروابى الخضراء والبستان الكبير.. وقصر أبيها.. والانتصارات الصغيرة تصنع النصر الكبير.. ونجوى انتصرت.. انتصرت اليوم.. رغم الجوع والدموع..

تمت

***

الفهرس

الموضوع	الصفحة

***